

المجلد

الجزء السابع من المجلد الثالث

رجب سنة ١٣٢٦ الموافق أغسطس (آب) سنة ١٩٠٨

غرائب القصاص

لعل بعض النفوس تنأذى بقراءة هذا الموضوع لأنه يدور على التفتن في إزهاق الأرواح على أنه لا بأس بشيء من القسوة يقوون بها قنوبهم للنظر في موضوع علمي تاريخي كان الإفترج بعد الحروب الصليبية يستعملون من أساليب القتل كل غريب عجيب وخصوصاً في عهد ديوان التفتيش الديني في البلاد اللاتينية التوتونية حتى إذا كانت سنة 1792 أخذت بعض البلاد ولاسيما فرنسا عن إيطاليا استعمال آلة يسووها المفصلة تحز رأس الجرم في أقل من ثانية ثم أخذوا يبطنون هذه العادات ولما جاء دور الكهربائية أنشأت بعض بلاد الغرب ولاسيما الولايات المتحدة تعبد إلى إصعاق الجرمين بها ولكن تبين مؤخراً أن المصعوق بإجراء مجرى كهربائي عنده لا يقتل في الحال بل أنه يقاسي أشد العذاب عقيب إصعاقه ولا تزهق روحه حقيقة إلا بعد أن تشرح جثته.

وقد قامت الدكتورة روينوفيتش وجمدت جملة منكراً على القتل بالكهرباء قالت: إن كان لا بد من استعمال هذه الطريقة الوحشية فلا أقل من أن يكون فيها شيء من روح الإنسانية بمضاعفة القوة الكهربائية خمسة أضعاف ما يجري الآن ليتم القتل في أقل من لحظة وقد جربت هذه الطريقة في الأرانج فوق الاستحسان عليها وأخذوا يستعملونها ولكن في عقاب الجرمين والأعضاء المولفة من الناس لتسلم بلادهم من شرور الأشرار.

وبعد فمنا برح البشر منذ عرف تاريخهم يقتل كبيرهم صغيرهم ويأكل قويهم ضعيفهم يعاقب في التنازع على الخندة واخذ المال والدين والعروض بعضهم بعضاً وآخر عقوباتهم ونتيجة إرهاباتهم الموت اخترعوا إلى الوصول إليه طرقاً ترتعد لسماع أخبارها اليوم الأعصاب وتاريخ الشرقيين والغربيين على غرار واحد من هذا القبيل ترى كتبنا فتحت صفحاته دماء أبرياء تعج من جور الأقوياء على الضعفاء فتبلغ عنان السماء وتتمثل لعينيك الأمم في ذلك كأسنان المشط في الاستواء قلنا يختلف شرق عن غرب أو أسود عن أبيض.

فمن حنق إلى حرق إلى شق إلى ضرب بالعصي والأكف ورمي بالنبال وهير بالسيف ودمر بالرمح والحرايب والقذائف والبارود والديناميت إلى سم وإجاعة وحز رؤوس وبقر بطون وسمل عيون واستلال لسان وصلم آذان وشتر شفاه وقصقصة أعضاء وجذم أكف وقطع أيد وأرجل وأكحل إلى غير ذلك مما يرجع إلى معنى واحد ألا وهو الإرهاب في العقوبة وبنوع المرء بأخيه ما يقال له الموت. فكما أن لسنوات عشرات المترادفات في العربية كذلك تجد في كل لغة ألفاظاً تدل على تلك المسميات التي تقدم الهيكل الإنساني وتطفي سراج الحياة.

فقد هي الرسول صلى الله عليه وسلم عن التعذيب والتشيل ومشى بعض أصحابه على هديه زمناً ولكن كان بعض أهل الصدر الأول يرجعون إلى التوحش وإرضاء الشهوات الغضبية فلا يدخرون وسعاً إذا ظفروا بعدائهم في أن يصبوا عليه سوط العذاب فكان معاوية بن أبي سفيان أول من فتح هذا الطريق كما ابتدع بدعاً كثيرة أتى بها على غير مثال احتذاه ممن سلفه فقد ذكر الثقات أنه كان يقرب ابن أثال

الطبيب منه ويفتقده كثيراً لأنه كان خبيراً بتركيب الأدوية ومنها سموم قاتل حتى مات في أيامه كثير من أكابر الناس والأمراء المسلمين بالسم وممن قتل في عهد أتباعه عبد الله بن عمر بعثوا إليه من رماه بسهم مسنوم في عقبه. والتاريخ طافح بما قام به من ضرور التكيل والتشيل وكذلك فعل بعض ملوك دولته من بعده. ولقد قابل بنو العباس الأمويين ببعض ما عاملوا به غيرهم وعمل السفاح بقول سديف في وصف بعض بني أمية لما ذهب منكمهم.

لا يعرفك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داءً دويماً
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أموياً
قال ابن الأثير ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم عنى عبد الله بن عني وعنده من بني أمية تسعين رجلاً على الطعام فأقبل عليه شبل فقال:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهايل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشخوها ... بعد ميل من الزمان وياس
لا تقبلن عبد شمس عثراً ... واقطعن كل رقنة وغراس
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاز سواني ... قهرهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها ... الله بدار الحوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد ... وقتلاً بجانب المهراس

= والقتيل الذي بحران أضحى = ثاويًا بين غربة وتناسي

فأمر بهم عبد الله فضربوا جميعاً بالعند وبسط عليهم الإنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسرع أن ين بعضهم حتى ماتوا جميعاً.

وأمر عبد الله بن علي بنش قبور بني أمية في الشام فنش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء ونش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه خطاً ما كأنه الرماد ونش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جهنمه وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وأحرقه وذراه مع الريح وتبع بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس. وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة جماعة من بني أمية عليهم الثياب الموشية وأمر بهم فحرقوا بأرجلهم والقوا على الطريق فأكنهم الكلاب.

وفي مروج الذهب أن الهيثم بن عدي روى عن معمر بن هاتئ الطائي قال: خرجت مع عبد الله بن علي وهو عم السفاح والمنصور فانتھينا إلى قبر هشام بن عبد الملك فاستخرجناه صحيحاً ما فقد منه إلا حرمة أنفه فضربه عبد الله ثمانين سوطاً ثم أحرقه فاستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقناه وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية وكانت قبورهم بقنسرين ثم انتھينا إلى دمشق فأخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره لا قليلاً ولا كثيراً واحتفرتنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه ثم احتفرتنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه إلا عظماً واحداً ووجدنا خيطاً أسود كأنما خط بالرماد بالطول في حده ثم تبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم. وكان سبب فعل عبد الله بن

أمية هذا الفعل أن زيد بن زين العابد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب سميت نفسه إلى طلب الخلافة فحاربه يوسف بن عمر الثقفي فانهمزم أصحاب زيد وانصرف هذا مشحناً بالجراح ولما مات دفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش وأجروا الماء على ذلك فدل يوسف على موضع قبره فاستخرجه وبعث برأسه إلى هشام فكتب إليه هشام أن اصلبه عرياناً وبني تحت خشبته عنود ثم كتب هشام إلى يوسف يأمره بإحراقه وتذريته في الرياح وكان ذلك.

وهكذا تجد ضرورياً من المية في تاريخ هذا القسم الصغير من الأرض فقد قتل أبو الجيش أحمد بن طولون أخاه المسنى بالأمين خنقاً بماء مغلي حتى مات. وقتل نصر بن أحمد صاحب خراسان أخاه زكريا بعصر خصاه. وقتلت أم خالد بن يزيد بن معاوية زوجها مروان بن الحكم أبو عبد الملك بأن أمرت خدامها أن يضعن المخاض على فمه حتى مات. وكم من رجل سم في كثرى أو رمي الزئبق في أذنه أو فصد بمصع مسسوم قيل أن أحمد بن الموفق ابن أخي المعتد بن المتوكل قتل عمه في حفرة ملاءها من ريش ورماه فيها فمات بها. وقتل الشهاب السهروردي جوعاً. وألقي رفيع الدين الجبلي من أعلى مغارة في بعلبك فتعلق في بعض جوانبه فبقي المبعثرون ذلك يسعون أنينه نحو ثلاثة أيام وعذب أعوانه وكان قاضي قضاة دمشق.

ولما غضب الراضي على الوزير أبي علي بن مقننه سلبه إلى الوزير أبي علي عبد الرحمن بن عيسى فضربه بالمقارع وأخذ خطه بألف ألف دينار فجرت عليه منه من المكاره والتعيق والضرب والوهق أمر عظيم وقطعت يده اليمنى وكان يقول في سجنه يد

خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة خلفاء وكتبت بها القرآن دفعتين تقطع كما تقطع أيدي النصوص ثم زيد في إخفائه وجعل في محبس وقطع لسانه. ولما خرج المصعب بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان في العراق سنة 71 ورأى تحيز الجفرية لعبد الملك أرسل إليهم فنسبهم وسبهم قال ابن جرير ثم ضربهم مائة مائة وحلق رؤوسهم ولحاهم وهدم دورهم وصهرهم في الشمس ثلاثاً وحنلهم على طلاق نسائهم وجرم أولادهم في البعوث وطاف بهم في أقطار البصرة وأحنلهم أن لا ينكحوا الحرائر.

ولما دخل مراکش مأمون الموحدين إدريس بن يعقوب أمر بتقليد شرفاتها بالرؤوس فنتها على اتساع الساحة. ولما استولى الغز على نيسابور أخذوا أبا سعد محي الدين النيسابوري ودمسوا في فمه التراب حتى مات. وقبض عز الدولة بن بويه على وزيره ابن بقية وسمل عينيه ولما منك عضد الدولة طنبه وألقاه تحت أرجل القينة فلما قتل صلبه. وكان الوزير ابن الزيات قد اتخذ تنوراً من حديد وأطراف مساميره اُخذودة إلى داخل وهي قائمة مثل رؤوس المسال في أيام وزارته وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين والمطلوبين بالأموال فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك نمن حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسده فيجدون ذلك أشد الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني فيقول له: الرحمة خور في الطبيعة. فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور وقيدته بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال يا أمير المؤمنين: ارحمني فقال له: الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس. قاله ابن خنكان.

ولما استولى أبو عبد الله الشيخ على فارس سنة 961 قتل الفقيهين أبا محمد الرقاق وأبا علي حرزوز ويحكى أنه لما مثل أبو محمد بين يديه قال له: اختر بأي شيء تموت فقال له الفقيه: اختر أنت لنفسك فإن المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان: اقطعوا رأسه بشاقور فكان من حكمة الله وعدله في خلقه أن قتل هذا السلطان به أيضاً. قاله في الاستقصاء.

وقال فيد: لما كان من السلطان أبي عبد الله الشيخ ما كان من غزوة تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد جرت المخاطبة بينه وبين حكومة السلطان سليمان ولما لم يلتزم الأدب اتفق رأي الوزراء على أن عينوا اثني عشر رجلاً من فتاك الترك وبذلوا لهم اثني عشر ألف دينار لا غتيال الشيخ فيها زالوا حتى وصلوا إليه وتعنتوا بخدمته ثم اغتالوه وضربوا رأسه بشاقور ووضعوه في محلاة فأوصلوا الرأس إلى الصدر الأعظم وأدخله على السلطان فأمر به أن يجعل في شبكة من نحاس ويعنقه على باب القنعة فبقي هناك إلى أن شفع في إنزاله ودفنه ابنه عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور.

ومما روى لسان الدين بن الخطيب من فظاظه محمد بن محمد بن يوسف ثالث المنوك من بني نصر أنه هجم لأول أمره على طائفة من مماليك أبيه كان سيء الرأي فيهم فسجنهم في مطبق الري من حمرائه وأمسك مفاتيح قفله عنده وتوعد من يرمقهم بقوت بالقتل فسكنوا أياماً وصارت أصواتهم تعنو بشكوى الجوع حتى خفت ضعفاً بعد أن اقتات آخرهم موتاً بلحم من سبقه وجمدت الشفقة حارماً كان يرأس المطبق على أن طرح لهم خبزاً يسيراً تنقص أكله مع مباشرة بلواهم ونمي إليه ذلك فأمر بذبحه

عنى حافة الجب فسأل عليهم دمه. قال ابن الخطيب وقانا الله مصارع السوء وما زالت المقالة عنها شيعة. والله أعلم بغيرهم لديه.

وقتل يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقيين خالد بن عبد الله القسري على طريقة غريبة قيل أن وضع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى انقصتا ثم رفع الخشبتين إلى ساقيه وعصرهما حتى انقصتا ثم إلى وركيه ثم إلى صدره فلما انقص مالت. وقال المقرئ دخل السلطان أبو الحسن سجدة عنوة على أخيه السلطان أبي علي عمر سنة 734 وجاء به في الكبل لفاس ثم قتله بالقصد والحق.

ولقد كان رؤساء الناس وولاة الأمر منهم هم الذين لا يباليون بإرهاق النفوس وإرهاق الأرواح وكثيراً ما يكون ذلك لغير سبب سوى الطيش والجهالة وكان بعضهم يبتد بإراقة الدماء مثل المعتضد بالله العبادي أحد ملوك الأندلس الذي دانت له المنوك من جميع أقطارها وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جنتها برؤوس المنوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور وكان يقول: في مثل هذا البستان فليتره. وهو من المنوك الذين هاهم القريب والبعيد خصوصاً بعد أن قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً لأن ابنه كان يريد الواقعة به.

قال لسان الدين وكان المعتضد بالله ابن عباد أبعد ثوار الأندلس صيتاً وأشدهم بأساً وأنجحهم أثراً جمع خزانة مملوءة برؤوس الملوك البائدين بسيفه وكانت وفاته سنة إحدى وستين وخمسمائة.

وفي رواية المقرئ أن بني الأحمر لما ظفروا بأعدائهم من ملوك الإفرنج في الأندلس سئخوا دون بطرة وحشوا جنده قطناً وعلق على باب غرناطة وبقي معلقاً لسنوات.

ذكر ابن سعيد أن التتار قتلوا المظفر قطز وخنعوا عظم كتفه وجعلوه في أحد الأعلام على عادتهم في أكتاف الملوك. ولما قتل مروان بن محمد الأموي استخفى عبد الحميد الكاتب بالجزيرة فغمر عليه فأخذ ودفعه أبو العباس السفاح إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن صاحب شرطته فكان يحني له طستاً بالنار ويضعه على رأسه حتى مات وقيل أن ابن المقفع قتله عامل البصرة لئلا تصور بأن جعله في تنور.

ودخل أبو الحسن الملك العادل سيف الدين وزير الظاهر العبيدي قبل وزارته بزمان على الموفق أبي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفى الديوان. فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية بمصر فلما أطلال عليه الكلام قال له أبو الكرم: والله أن كلامك ما يدخل في أذني فحقد عليه فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه فخاف منه واستتر مرة فنادى عليه في البلد وهدر دم من يخفيه فأخرجته الذي خبأه عنده فخرج في زي امرأة بإزار وخف فعرف وأخذ وحمل إلى العادل فأمر بإحضار لوح من خشب ومسار طويل فألقي على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه ثم ضرب المسار في الأذن الأخرى فصار كئيباً صرخ يقول له: دخل كلامي في أذنك بعد أم لا ولم يزل كذلك حتى نفذ المسار من الأذن التي على اللوح ثم عطف المسار على اللوح ويقال أنه شنقه بعد ذلك.

وروى التاريخ أن أخباراً من تلقوا نكباتهم بالصبر العجيب ومن أنباء شجعان الزمان ما لا يكاد يصدق إلا أن أهل الأبناء منهم كانوا يؤثرون الموت في الرحف ويتفادون من الوقوع في أيدي عداقتهم لئلا يمثلوا بهم فقد جاء عبد الله بن الزبير إلى أمه أسماء ذات النطاقين لما خذله أصحابه في مكة فقال: ما ترين يا أمة فقد خذلني الناس. فقالت: لا

ينعّب بنك صبيان بني أمية عَشْ كَرِيماً أو مت كَرِيماً. فقال: أخشى أن يمثل بي بعد الموت فقالت له: إن الشاه لا تألم بالسُلخ بعد الذبح فقبل بين عينيها وودعها وخرج يقاتل إلى أن كان من أمره ما كان.

وقلب باسيل الثاني المنقب يقاتل بلغاريا بعد حرب 37 سنة مُنْكَة بلغاريا ومقدونية سنة 1018 وأسر خمسة عشر ألف بلغاري وسمل عيونهم وكان أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النديم حصيصاً بالمتوكل وندماً له غضب عليه المتوكل فأمر بقطع أذنه فقطعت من غضروفها من الخارج.

واستعمل القتل بوضع من يراد قتله تحت أرجل الفيلة كما أمر أحد بني بويه بأبي إسحق الصامى لما غضب عليه أن يجعل تحت أرجل الفيلة ولكنهم شفعوا به لئلا يذبحه وكانوا يعنقون من يريدون قتله أيضاً في ذنب الخيل ويجرونها كما فعل أزدشير بوزير ابنة الساطرون إذ أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها.

ومما ذكر في قانون الصين من أنواع القتل المعروف بلغتهم بالبأشب وهو تقطيع الأعضاء إرباً غرباً وصفته أن يشد الذي يراد به ذلك بين خشبتين قائمتين وتربط يده ورجلاه ووسطه ربطاً محكمًا ثم تجزأ أنامله وأصابعه أغملة أغملة وعقدة عقدة ثم تفصل يده من الرسغين ثم من المرفقين ثم من الكتفين ويفعل برجليه مثل ذلك فإذا قطعت الأطراف جدع أنفه وصنبت أذناه وأخرجت عيناه ثم برش لحنه وجنده بأمشاط من الحديد حتى يفرق بين عظمه ولحمه ويصير كالشاة التي جرد القصاب لحمها ويفعل ذلك به حياً وقد أبطل الإمبراطور هذا العقاب مؤخرًا.

وبالجملة فإن أنواع القتل كثيرة وهذا أهمها فيما انتهى إلينا معرفته وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن صولاً جد إبراهيم بن العباس الصولي شهد الحرب مع يزيد بن المهذب وأن يزيد وجد مقتولاً بلا طعنة ولا ضرب انسدت أذناه ومنحراه وامتلاً فند بغيار العسكر فمات فلا يعرف مثله قتيلاً بغيار. قلنا ومثله قتيلاً الدخان
وتمن لم يموت بالسيف مات بغيره ... تنوعت الأسباب والموت واحد

المسئون والذميون والمعاهدون

الإحساس دليل الحياة

التضامن رائد العمران

يا ابن أمي! ويا ابن عمي!

نحن صنوان صننا عاطف القر ... بي جميعاً في مصر صم النطاق

فوق هام الأهرام منك ومني ... غرة طكوكية الإشراق

فتقدم يا أخي وصافح أخاً ير ... جو صفاء العيش في رضا واتفاق

إنما النجاح في اتحاد قلوب ... بولاء ونبد كل شقاق

عرفكم الله حلاوة الانضمام بعد طول الانقسام وأنعم عليكم ببركة الائتلاف والوئام

بقدر ما عرفتموني لذة الكلام في هذا المقام وبقدر ما أنعمتم عليّ بالتشجيع

والاستحسان!

فلقد رأيت من التفافكم حولي لاستماع قولي ورأيت من قومي حينما أبلغتكم

الصحف كلني أن نغني صادفت منك هوى في الفؤاد وإن صداها قد تردد في

جوانب هذه البلاد حينما جهرت بدعوة أهل الشرق على طريق الحق وناديت على رؤوس الأشهاد بتوثيق علائق الارتباط بين المسلمين والأقباط.

نعم نعم! فلقد اهتزت الأمة دانيها وقاصيها ورددت هذه الكنيسة بملء فيها وأصبح شعار كل حي في كل حي: إنا مصريون قبل كل شيء.

لم أكن وحقك! أنتظر هذا الإقبال من ابن أُمي وهذا القبول من ابن عني ولم يكن يحدثني به وهمي حتى ولا في حلبي أثناء نومي. ولكن كان من حظي أن هذه الكنيسة تجسدت وقد تنبّهت الأمة بعد استسلمت للجنود وأخذت للجنود في الجنود بحيث كان الناظر لأبنائها وهم في هود يحسبهم أيقاظاً وهم رقود فحيا الله هذا الشعور! الذي جاء آية على استئناف البعث والنشور. وحذا هذا اليوم الذي سيقتى غرة في حين الزمان! فلقد علمنا فيه أن الإحساس دليل الحياة وأن التضامن رائد العمران!

يقول العرب في أشعارهم: إن المهمل لمقدم ويقول الفرنسيون في أمثالهم: الأمير أولى بالتصدير.

وأي شيء أولى بالتصدير والتقديم من كلام القديم والتقديم كمن كلام القدير القديم؟ قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمْتَ عَلَيْهِ قَانِئاً﴾ فجعل الوفاء بالقنطار والغدر بالدینار إشارة إلى أن الوفاء أكثر شيوعاً في أخلاق أهل الكتاب. وحسبهم ذلك مدحاً وفخاراً. وليس لي أن أتوسع في التفسير وإنما أستشهد على صدق هذه الآية بحادثتين وقعتا في بغداد وفي مصر:

فمصدق الشطر الأول: أن ابن القرات وزير العباسيين المشهور كان يودع أمواله عند كثيرين من صناعه المخلصين له استعداداً للطوارئ واستظهاراً من غدر الأيام. أخبر في إحدى نكباته بأن له عند يوسف بن فيحاس (أو بنجاس) وهرون بن عمران الجهميين اليهوديين سبعمائة ألف دينار فأقرا في الحال بالمال ودفعاه وقدره 420 ألف جنيه مصري.

ومصدق الشطر الثاني: أن زوجة الأخشيد كانت قد أودعت عند رجل من اليهود جرة من النحاس وضعت فيها ثوباً منسوجاً بالذهب وبداتره من الجوهر شيء كثير. فلما زالت دولة الإخشيديين واستولى الفاطميون على مصر ذهبت المرأة بعد زوال عزها إلى ذلك الذي جعلته موضع ثقته واستأمنته على ذخيرتها فأنكر. فقالت: خذ بعض الثوب فلم يفعل. فالتمسست أن ينعم عليهم بكم واحد ويأخذ الباقي حلالاً فلم يقبل وكان في الثوب تسع وعشرون درة من الدرر الغوالي فأنت إلى قصر المعز تتعثر في أطمارها وهي أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء ولسان حالها ينشد بيت بنت منك العرب التي أحنى عليها الدهر مثلها وهي حُرقة بنت النعمان بن المنذر:

فينا نسوس الناس والأمر مرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتصف

فأفٍ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

حتى إذا أتت قصر المعز وهي ذليلة بعد ذلك العز. عرضت عليه قصتها. فأحضر الرجل فأنكر. فبعث إلى داره من خرب عض حيطاتها. فظهرت الجرة في أحد الجدران ورأى المعز الثوب وتعجب من الجوهر والنؤلؤ الذي فيه. ووجدوا أن اليهودي أخذ من صدره درتين فاعترف أنه باعهما بألف وسبعمائة دينار فسلم الخليفة الثوب إلى

صاحبه فحمدت الله الذي أظهر صدقها واجتهدت في أن يأخذها ويعطيها مهنا أراد فلم يفعل. فقالت: يا سيدي هذا الثوب كان يصلح لي وأنا زوجة صاحب مصر فأما الآن فلا حاجة لي به وهو لا يليق بي فأبى أن يأخذها واستلته صاحبه. وبهذا التقدير يكون ثمن ما فيه من اللؤلؤ فقط نحواً من ثلاثين ألف جنيه مصري.

ومن المعلوم أن العلم من أجلّ الأمانات بين الناس وقد وقف بنا المقال في الجلسة الماضية عند نظرية جديدة بالاعتبار: وهي أن العلم مشاع وأنه ليس له وكن ولا دين بل هو مورد سائغ لكل الأفراد ولجميع الأمم. وقد أطرقتكم بشيء يسير مما وقع في تلك العصور وعصور الحكمة والنور إذ كان المسلمون يأخذون النصارى وغيرهم من أهل الديانات الأخرى وهؤلاء يأخذون عنهم ويتلقون عنهم ما يكسبون به أجراً وفخراً.

وأما علماء النصارى واليهود يأخذون شرائع دياناتهم عن رجلين من فقهاء المسلمين ورأينا أفاضل المسلمين يسعون في طلب الحكمة والفلسفة والطب من نوابع الدمين. وننتقل الآن على الفقهاء من الطوائف الثلاث الذين استبدلوا علوم الأبدان بعلوم الأديان كما سبق أعشى همدان إلى استبدال الشعر بالفقه فنتهم الإمام العالم الشيخ موفق الدين عبد العزيز بن عبد الجبار بن أبي محمد السنسي المتوفى سنة 604 فقد كان أول أمره فقيهاً في المدرسة الأمينية بدمشق عند الجامع الأموي ثم بدا له الاشتغال بالطب فأعاد نفسه دارساً بعد أن كان مدرساً ورجع تنبيهاً بعد أن كان أستاذاً. واشتغل على الياس بن المطران بصناعة الطب حتى أتقن معرفتها وحصل عندها وعملها وصار من المتخرجين السابقين بين أربابها والمشايخ الذين يقتدى بهم فيها

وأصبح هذا الفقيه سابقاً وله بعد تلك المجالس الفقهية مجلس عام للطب يحضره المشتغلون عليه بهذه الصناعة من المسلمين والنصارى واليهود.

وقد اشتهر رجل من فقهاء صقلية (من أعمال إيطاليا اليوم) بالطب بقدر ما اشتهر بالفقه حتى كان الناس يفرعون إليه بالفتيا في الطب كما كانوا يفرعون إليه بالفتيا في الفقه. هذا هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عني التيسيم المازري نسبة إلى مدينة مازر (بفتح الزاي والراء) من مدن جزيرة صقلية وقد اشتهر باسم الإمام. لأنه كان متقناً للعلوم مقدماً في علم المنطوق والمفهوم. وكان آخر المشتغلين بإفريقية (تونس) بتحقيق العلم ودراسة الاجتهاد ودقة النظر. توفي سنة 536 وقد نيف على الثمانين. يحكى أن سبب اشتغاله بالطب أنه مرض فكان يطبه يهودي فقال له: يا سيدي أمتني يطب مثلك فاشتغل الشيخ حينئذ بالطب وبرع فيه براعة لا يدانيه فيها أحد. فأين الآن هذه الأيام؟ وهل لنا بمثل أولئك الرجال الذين يفتخر بهم الإسلام.

ولما كان أنشئ بالشيء يذكر فلا أرى بأساً من أن أذكر لكم بمناسبة هذا المسلم المسمى بموفق الدين رجلين يسمى كلاهما بالشيخ موفق الدين أحدهما إسرائيلي والثاني نصراني.

فأما الأول: فهو الشيخ موفق شمس الرئاسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن ابن إفرائيم بن جميع الإسرائيلي المصري. نشأ بفسطاط مصر وانقطع لإتقان العلوم وتفرغ لصناعة الطب وألف فيها كتاباً نفيسة مفيدة. كان جالساً يوماً في دكانه بالفسطاط وقد مرت عليه جنازة. فلما نظر إليها صاح بأهل الميت وذكر لهم أن صاحبهم لم يموت وأنهم إن دفنوه فإنما يدفنون حياً. فهبت القوم من قوله وتعجبوا من أمره ولم يصدقوه

في خبره ثم أن بعضهم قال لبعض: هذا الذي يقوله ما يضرنا أننا نحتجده؟ فإن كان حقاً فهذا الذي نريده. وإن لم يكن حقاً فهو الذي يريده الورثة فأمرهم بالمسير إلى البيت وحمد إلى الحمام بعد نزع الأكفان ثم سكب عليه الماء الحار وأحمى يده ونظفه بنطولات (أي رش عليه سوائل وكنده بالكمادات) فعطس الميت فرأوا فيه أدنى حس وتحرك حركة خفيفة فقال ابن جميع: أبشروا بعافيته. ثم تم علاجه إلى أن أفاق وصلى. ثم أنه سئل بعد ذلك عن هذه الكرامة: من أين علمت أن الروح لا تزال فيه وهو محمول وعليه الأكفان. فقال إني نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى تكون منبسطة فحدثت أنه حي وكان حدسي صائباً. ومن ذلك الوقت اشتهر بجودة الصناعة والعلم فأقبل عليه الناس للتحصيل فكان له مثل ذلك الموفق المسنم مجلس عام يحضره المشتغون بهذه الصناعة من المسلمين والنصارى واليهود. وكان في مجلسه هذا لا يفارق كتاب الصحاح فلا تمر كلمة لا يعرفها حق المعرفة إلا ويكشفها منه ويعتد على ما أورده الجوهرى. فبرع حتى صار من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين والأكابر الذين يشار إليهم بالبنان. وأقيمت عليه الدنيا بهذين السنين حتى تقدم في خدمة الملك الناصر صلاح الدين وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة عنده جليل القدر نافذ الأمر عالى الهبة. ولما كان الشعراء هم الغاوين قد دبت عقارب الحسد إلى شاعر اسمه ابن المنجم المصري. وكان مشهوراً بحيث النسان فانبرى يهجو به بكل قبيح فمن ذلك قوله فيه:

لا بن جميع في طبه حق ... يسب طب المسيح من سببه

وليس يدري ما في الرجاجة من ... بول المريض ولو تمضمض به

وأعجب الأمر أخذه ابداً ... أجرة قتل المريض من عصبه
 دعوا ابن جميع ومهتانه ... ودعواه في الطب والهندسة
 فيما هو إلا رقيق أتى ... وإن حل في بلد أنحسه
 وقد جعل الشرب من شأنه ... ولكن كما تشرب النرجس

وقال:

كذبت وصحفت فيما ادعيت ... وقنت أبوك جميع اليهودي
 وليس جميع اليهودي أباك ... ولكن أبوك جميع اليهود
 ولما كانت العدوّة في الأهل وفي أرباب الحرفة الواحدة فقد هجاه يهودي تجعده وابن
 جميع رابطة الفضل والعلم والدين وهو موفق الدين ابن سوعة الإسرائيلي المصري
 قال:

يا أيها المدعي طباً وهندسة ... أوضحت يا ابن الجميع واضح الزور
 إن كنت بالطب ذا علم فلم عجزت ... قواك عن طب داء فيك مستور
 وبقية الأبيات لا أستطيع إيرادها في هذا المقام ولا في غيره. ولكن هذه الخبايا
 الشعرية لم تمنع أفاضل المسلمين من مدح ابن جميع والاعتراف بحقه والتأييد بذكره
 حتى أنه لما مات رثاه الشيخ يوسف بن هبة الله بن مسلم بقصيدة غراء في ستة وثلاثين
 بيتاً أولها:

أعيني بما تحوي من الدمع فاسجني ... وإن نفذت منك الدموع فبالدم
 فحق بمن تدرى على فقد سيد ... فقد نابذ فضل العلا والتكرم

ومنها:

وأنجد من يحمته لمنته ... وأنجد من أملتته لتألم
ولو كان يفدى من حمام فديته ... بنفس متى تقدم على الموت تقرم

ومنها:

فقل معننا الشامتين بموته ... ذروا الجهل إن الجهل منكم بآثم

ومنها

أما عجب إذ غاله الحنف رامياً ... وقد كان أرمى الخطوب بأسهم
فويح المنايا ما درت كنه حادث ... رمت سيداً يحيا به كل منعم

أما الثاني: فهو الحكيم الإمام العلامة الفاضل الشيخ موفق الدين أبو بصر أسعد ابن أبي الفتح الياس بن جرجس المطران المتوفى سنة 587 فقد كان سيد الحكماء وأوحد العناء سافر إلى بلاد الروم لإتقان الأصول التي يعتد عليها في علم النصارى ومذاهبيهم. ثم ذهب إلى العراق متشبهاً بموفق الدين المسلم وترك علوم الدين المسيحي واشتغل بعلم الطب على أمين الدولة ابن التليذ (الذي سنورد شيئاً من أخباره فيما بعد) ثم رجع إلى دمشق وخدم بصناعة الطب السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبي فقربه وأدناه وكان عنده رفيع المراتلة عظيم الجاه بحيث كان يقضي حوائج الناس ولا يفارق السلطان في سفر ولا في حضر ولذلك كان الطبيب يدل بمكانته لديه ويتكبر حتى على منوك المسلمين بل على نفس صلاح الدين وكان صلاح الدين قد عرفها عنه ورضيها منه.

ومن أغرب ما تضمنته بطون الدفاتر في هذا الموضوع أن السلطان صلاح الدين بينما كان يحارب الإفرنج ويرد غوانهم عن سواحل الإسلام كان يستعين بأهل الذمة في

مدافعتهم ويستخدمهم في تطيب جنوده وتقويتهم على رد أعدائهم وأعدائهم. وقد فهم أهل الوطن الواحد في عصره الجيد أنهم لا بقاء لهم ولا جاهد إلا بالتفاف حول راية واحدة هي راية الوطن. ومما يتعلق بعجب موفق الدين وإدلاله على صلاح الدين أنه كان معه في بعض غزواته وكانت عادة صلاح الدين في وقت حروبه أن ينصب له خيمة حمراء وكذلك دهليزها وشقتها ليشير عن سائر العسكر وهذا من أبغ ما يكون من الشهامة في الحروب فاتفق أنه ركب ذات يوم ليفقد الجيش فإذا بخيمة تشابه خيمته كل الشبه فبقي متأملاً لها وسأل لمن هي؟ فأخبر أنها لابن المطران الطبيب فقال السلطان: والله لقد عرفت هذا من حماقة ابن المطران. وضحك. ثم قال: فلو جاء رسول من الإفرنج ومرو بهذه الخيمة أفلا يخطئ ويظنها لي. بل لو جاء باطني لفتك بي أفلا يحوز أن يتخطاني إلى طيبي. فإذا كان ولا بد فلا أقل من تغيير مستراحها. ثم أمر به فأزيل. فلما رأى موفق الدين صعب عليه الأمر وامتنع عن خدمة السلطان أياماً حتى استرضاه السلطان ووهب له مالا. وكان في خدمة السلطان طبيب نصراني آخر يقال له أبو الفرج فاحتاج إلى تزويج بناته وتجهيزهن فطلب من صلاح الدين أن يطلق له ما يستعين به على ذلك، ولما كان السلطان فقيراً لا يملك شيئاً من حطام الدنيا حتى أنه عند موته لم يترك في خزانته (بشهادة المؤرخ أبي الفرج العبري النصراني) غير دينار واحد وأربعين درهماً. فذلك أمر أبا الفرج أن يكتب كشفاً ببيان جميع ما يحتاج إليه في تجهيز بناته النصرانيات فكتب من الحلبي والقباشر والآلات وغير ذلك ما بلغت قيمته ثلاثين ألف درهم. فدفع السلطان هذا الكشف إلى الخزنة دار وأمره بأن يشتري من بيت مال المسلمين جميع ما طلبه أبو الفرج ولا يحل بشيء منه فمما هو إلا أن بلغ

صاحبنا موفق الدين حتى أخذته الغيرة من زميله فقصر في ملازمة الخدمة وهجر السلطان هجراً ثقیلاً فلم ير صلاح الدين حينه لاستصلاح موفق الدين سوى إرضائه أيضاً. فأمر الخزنة دار بأن يصرف له من بيت مال المسلمين يوازي جميع النفقة التي صرفت في تجهيز بنات أبي الفرج مهناً بلغت قيمتها. ففعل الخزنة دار ورضي صاحب ذلك الدلال.

ومن عجيب أمر موفق الدين هذا أن العجب والتكبر الذي كان يغلب عليه كان يفارقه حيناً يذهب لطلب العلم. فكان في هذه الحالة آية في التواضع والخشوع شأن ذوي العقول الصحيحة والأحلام الرجيحة. كان هذا المختل الفخور متى تفرغ من الخدمة في دار السلطان ركب في موكب حافل تحف به جماعة كثيرة من المماليك الترك وغيرهم وذهب بهذه الأبهة الفاتقة وهذه العظمة الشائقة إلى جامع المسلمين. فإذا اقترب من الجامع ترجل وأخذ الكتاب الذي يشتغل به في يده أو تحت إبطه. ولم يترك أحداً من الغلمان يصحبه. لا يزال ماشياً والكتاب معه إلى حلقة الشيخ الذي يقرأ عليه النحو والأدب واللغة وهو الشيخ الإمام تاج الدين أبو اليسر زيد بن الحسن الكندي. فيقرؤه السلام ويقعد بين الجماعة بأدب واحتشام إلى أن يفرغ من الدرس والتحصيل فيعود إلى ما كان عليه الأبهة والعظمة والشيوخ على الكبير قبل الصغير.

وقد كان موفق الدين قدوة في هذا الأمر لملك الناصر داود ابن الملك المعظم ابن الملك العادل ابن أيوب صاحب الكرك. فقد حكى النجيب الراهب المصري الحاسب بدمشق أن هذا الملك كان يتردد إلى شمس الدين الحسرو شاهی المتوفى سنة 652 يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة لابن سينا. وكان إذا وصل إلى رأس الخلة التي بها منزل

الخسر وشاهي أوماً إلى من معه من الحشم والمنايين ليقفوا مكانهم. ويترجل ويأخذ كتابه تحت إبطه منتقياً بمنديل ويحییء إلى باب الحكيم ويقرعه فيفتح له ويدخل ويقرأ ويسأل عما خطر له ثم يقوم ولم يمكن الشيخ من القيام له.

ولله در بني أيوب يرد الله مضاجعهم وطيب ثراهم. فإنهم في هذا الباب خير قدوة لمنوك الزمان وخصوصاً منوك الإسلام. فقد أخذ الحديث برفاقب بعضه وجرنا إلى ذكر صاحب مصر وعم الملك المعظم المذكور وأعني به الملك الكامل بن الملك العادل ابن أيوب المتوفى سنة 635. وقد عليه أبو العباس ابن دحية من أكابر علماء المسلمين بالأندلس فاتخذته الملك أستاذاً له في العلم والأدب وجعل له من الإكرام والإجلال غاية ليس وراءها مطلب. وبالع في تعظيمه وتبجيله حتى كان يسوي له بنفسه مداسه حين يقوم. وهو هو الذي خشي بأسمه الصنيسيون فتقربوا إليه وهادنوه وخطب وده الإمبراطور فريدريك بعد أن أسر القديس سان لوي وأعاده مكرماً معظماً. وكان هذا الملك يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من فضلاء المسلمين والنصارى واليهود ويشاركهم في مباحثهم كأنه واحد منهم. ومما يؤثر عنه أنه لما تولى سلطنة مصر خفض من ضرائبها بما يقارب الثلث فأفاد بذلك رعيته المسلمين والأقباط على السواء.

نرجع إلى صاحبنا موفق الدين ونقول أنه أسلم وحسن إسلامه وأن صلاح الدين زوجه إحدى حظايا داره المقربة لدى زوجته خوند خاتون فأعطتها الكثير من حليها وذخائرها ومولتها وخولتها. فرتبت أمور موفق الدين وهذبت أحواله وحسنت زيه وجهنت ظاهره وباطنه. وصار له ذكر سام في الدولة وتنافس الأمراء في الإنعام عليه وتوقت حاله حتى كاد يكون وزيراً ولكنه ما زال يتعهد زملاؤه فكان يقدمهم

ويتوسط في إدرار الأرزاق عليهم. وكانت له دار بدمشق على غاية من الحسن في العبارة والتجليل وفيها بركة يبرز منها الماء من أنابيب ذهب على غاية ما يكون من حسن الصنعة وفيها مكتبة تحتوي على نحو عشرة آلاف مجلد عدا ما استنسخه. فقد كانت له عناية بالغة باستنساخ الكتب وتحريرها وكان في خدمته ثلاثة يكتبون له أبداً ولهم منه الجامكية والجراية المتصنة. وقد كتب بخطه كتباً كثيرة في نهاية حسن الخط والصحة والإعراب. وصحح بنفسه أكثر الكتب التي عنده وأتقن تحريرها. وذلك كنه غير الكتب التي كان يهبها لتلاميذه فضلاً عن الإحسان إليهم والاعتناء بأمرهم. وكان أجل تلاميذه الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم ابن عني المسلم ومن أخص أصدقائه الشيخ موفق الدين بن البوري الكاتب النصاراني.

قال الحكيم أوحى الدين عمران الإسرائيلي أنه حضر بيع كتب ابن المطران المذكور فوجدهم قد أخرجوا أجزاء صغيرة من الكتب الصغار أو المقالات المنفرقة في الطب مما استنسخه أو نسخ ابن المطران بخطه وكان عددها كثيراً جداً بلغ الوفا كثيرة وأن القاضي الفاضل بعث يستعرضها فأرسلوا له بملء خزانة صغيرة منها فنظر فيها ثم ردها. فبلغت في المناداة ثلاثة آلاف درهم واشترى الحكيم عمران أكثرها. وقال أنه حصل الاتفاق مع الورثة أنهم أطلقوا بيعها كل جزء بدرهم. فاشترى الأطباء هذه الأجزاء الصغار على هذا الشن بالعدد.

وهذا الحكيم عمران الإسرائيلي توفي بعد المطران بسنتين وقد أخذ الطب عن الشيخ رضي الدين الرحبي أستاذ أو أستاذ أساتذة الأطباء جميعاً بالشام وتلميذ ابن جميع الإسرائيلي المصري. وقد جرى الحكيم عمران على مذهب شيخه في عدم خدمة

المنوك والسفر معهم. ولكنهم (وخصوصاً بني أيوب) غمروه بالإحسان السني والعطايا الجزينة. حتى حاز من الأموال الجسيمة والنعم ما يفوق الوصف. ولقد حرص الملك العادل أبو بكر بن أيوب أن يستخدمه في الصحة فيما فعل. واجتهد الملك الناصر داود الذي ذكرناه قبل هذا بأن يجعل له في كل شهر ألفاً وخمسمائة درهم وقدم له مرتب سنة ونصف مقدماً فلم يقبل فوهبه مائلاً كثيراً وتركه على حريته. وكان السلطان الملك العادل لم يزل يصله بالأنعام الكثير وله منه الجامكية الوافرة والجراية وبقي مرتبه محفوظاً له بعد موت الملك العادل في سلطنة المعظم وليس عليه سوى أن يتردد على الدور السلطانية بالقلعة وإلى البيمارستان الكبير لمقابلة المرضى.

وقد بلغ من إكرام اليوبيين لأهل الفضل أن الحكيم موفق الدين أبا شاهر النصراني حظي عند الملك العادل حظوة عظيمة وتمكن منه ومن دولته تمكناً كثيراً فأنعم عليه بضياع كثيرة وغيرها ولم يزل يفتقده بالهبات الوافرة والصلوات المتواترة. وجرى الملك الكامل معه على سنة أبيه وزاد فإنه أباح له الدخول راكباً في جميع قلاع مثل قلعة الكرك وجعبر والرها ودمشق والقاهرة وكان ذلك منتهى التشريف في تلك الأيام خصوصاً لمن كان متمتعاً بالصحة والعافية مثل ذلك الموفق. ولقد بلغ من أمره أن العادل حينما ترك دار الوزارة التي كانت مقراً لبني أيوب بعد ذهاب دولة الفاطميين واستقر بقصر القاهرة في القلعة أنه أسكن موفق الدين هذا معه في قصره. ركب السلطان مرة بغلة النوبة وخرج إلى بين القصرين (بالجهة التي بها المشهد الحسيني الآن) فركب فرساً آخر وأرسل البغلة التي كان راكباً عليها إلى دار الحكيم بالقصر وأمر بركوبه عليها وخروجها من القصر راكباً. ولم يزل واقفاً بين القصرين إلى أن وصل

إليه فأخذ بيده وسأله يتحدث معه وسائر الأمراء يمشون بين يدي المنك الكامل. والشيء من معدنه لا يستغرب. فقد كان الكامل كاملاً بأكمل معاني الكنية لا يفرق بين مسلم وذمي ممن تحلى بالفضيلة والكمال.

ذكرت لكم قصة اليهودي الذي أحيا الميت. وبما أنني في معرض التوفيق بين العناصر المختلفة التي تجمعها راية واحدة هي راية الوطن فأخشى أن يكون المسنون والنصارى قد نقسوا على هذا العاجز أن لا يذكر منهم رجلاً أحيوا الموتى. فاستحووا لي إذن بذكر حادثتين؟ وأبدأ بالمسلم لتقدمه في الزمن ليس إلا وأثني بالمثلث وإن كان دينه جاء أولاً.

جنس هارون الرشيد في بعض الأيام وقدمت بين يديه الموائد وجبرائيل بن يحيى شوع غائب فامتنع أمير المؤمنين عن الأكل حتى يحضر جليسه وسنيره. وأمر بطلبه ليحضر الأكل مع صحابته على عادته. فبحثوا عنه في جميع منازل الحرم والأمراء ولم يقع القوم له على أثر. فتكدر الرشيد وطفق يلعنه ويقذفه وإذا بجبرائيل داخل عنده وقد سمع سيد بأذنه فلم يهتج ولم يتروع بل قال: لو اشتغل أمير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه إبراهيم بن صالح وترك ما هو فيه من تناولي بالسب كان أشبه فاستفهم الخليفة عن الواقع فأعلمه أنه خلفه وبه رفق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة فاشتد جوع الرشيد وأمر برفع الموائد وأقبل على البكاء حتى رحمه جميع من حضر. فقال جعفر البرمكي: يا أمير المؤمنين إن طب جبرائيل رومي وعندنا صالح بن بهلة وهو في العنم بطريقة أهل الهند مثل جبرائيل في العنم بمقلات الروم. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره وتوجهه إلى إبراهيم بن صالح لنفهم ما يقول مثل ما فهمنا عن جبرائيل. فأمر

الرشيد ورجع صالح الهندي المسلم بعد هنيهة وسأله جعفر وشدد في معرفة الخبر فأبى صالح بن هجلة وأصر على القول بأنه لا يكشف بما رآه غير أمير المؤمنين فلما أدخل عليه قال: يا أمير المؤمنين أنت الإمام وعاقده ولاية القضاء للحكام ومهبط حكمت به لم يحز لحاكم فسخره. وأنا أشهدك يا أمير المؤمنين وأشهد على نفسي من حضرك أن إبراهيم بن صالح إن توفي في هذه الليلة أو في هذه العلة إن كل ممنوك لصالح بن هجلة حر لوجه الله وكل دابة له فحس في سبيل الله. وكل مال له فصدقة على المساكين. وكل امرأة فطالق ثلاثاً بتاتاً فقال الرشيد: حلفت ويحك يا صالح على غيب والغيب لا يعينه إلا الله. فقال صالح: كلا يا أمير المؤمنين. إنما الغيب ما لا علم لأحد به ولا عليه دليل له. ولم أقل ما قلت إلا بعلم واضح ودلائل بينة. فسري عن الرشيد ما يحدد وأكل وشرب وطرب. ولما كان وقت صلاة العتمة ورد كتاب صاحب البريد بمدينة السلام يخبر بوفاة إبراهيم بن صالح. فاسترجع الخليفة بالبكاء والعيول وأقبل على جعفر بالنوم على إرشاده إلى صالح بن هجلة وأقبل ينعن الهند وطبهم ويقول: واسوأته من الله! أن يكون ابن عني يتجرع غصص الموت وأنا أتحن فرص النهو والقصف. ثم دعا بمقيء فقتل به ما في جوفه من طعام وشراب وبكر إلى دار إبراهيم بكور الغراب ولم يرض الجلوس على السارق والمساند بل وقف متكئاً على سيفه. وقال للنراشين: لا يحسن الجلوس في المصيبة بالأحبة على أكثر من البسط. وأمر برفع القرش والسارق وجلس بعد ذلك على البساط. فصارت سنة في المآتم لبني العباس ولا يزال أثرها باقياً على اليوم في مصر وغيرها من بلاد الشرق خصوصاً في دور الحرم. وبقي القوم في سكوت وسكون كأنما على رؤوسهم الطير حتى إذا سطعت روائح الخمار صاح صالح

ورفع عقيرته وهو يقول كاجلئون: الله الله يا أمير المؤمنين أن تحكم بطلاق زوجتي وهي حلال لي وحرام على غيري. الله الله أن تخرجني من نعمتي ولم يلزمني حنث. الله الله أن تدفن ابن عمك حياً فوالله يا أمير المؤمنين ما مات. فأطلق لي الدخول عليه والنظر إليه. وهتف بهذا القول مرات أزعجت الخليفة والحاضرين. فأمر بالإنعام عليه بما يريد. فدخل وحده وليث الحاضرون يستمعون ضرب بدن بكف ثم كف. وإذا بتكبيره ارتجت لها جوانب الدار وخرج صائح يقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر ثم قال: قم يا أمير المؤمنين حتى أريك العجب الأكبر. فدخل الرشيد وخواصه فأخرج صائح إبرة كانت معه فأدخلها بين ظفر إبهام يد الميت ولحمه ف جذب الميت يده وردها إلى بدنه. فقال صائح: يا أمير المؤمنين هل يحس الميت بالوجع؟ فقال الرشيد: لا. فقال له صائح: لو شئت أن يكفم أمير المؤمنين الساعة لكفمه. فقال له الرشيد: فأنا أسألك أن تفعل ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين أخاف إن عاجلته وأفاق وهو في كفن فيه رائحة الحنوط أن ينصدع قلبه فيموت. ويكون الموت حقيقياً ولا تكون لي حيلة في إحيائه. ولكن يا أمير المؤمنين تأمر بتجريدته من الكفن ورده إلى المغسل وإعادة الغسل عليه حتى يزول رائحة الحنوط عنه ثم يلبس مثل ثيابه التي كان ينسها في حال صحته ويطيب بمثل ذلك الطيب ويحول إلى فراش من فرش كالتي كان يجلس وينام عليها حتى أعالجه بحضرة أمير المؤمنين فإنه يكفمه من ساعته فأمر الرشيد بامثال أمر الطبيب ثم دخل عنى ابن عمه فدعا صائح بكندس (وهو جذر نبات يشبه الخرشوف) ومنفخة ونفخ في الكندس في أنفه فنكت الميت مقدار سُدس ساعة (10 دقائق) ثم اضطرب بدنه وعطس وجس قدام الخليفة وقبل يده. فسأله الرشيد عن قصته فذكر أنه كان نائماً

نوماً لا يذكر أنه نام مثله قط طيباً إلا أنه رأى في منامه كلباً قد أهوى إليه فتوقاه بيده
فعض إبهام يده اليسرى عضّة لا يزال يحس بوجعها. وأراه إبهامه التي كان صاخ أدخل
فيها الإبرة. وعاش إبراهيم بعد ذلك دهراً وتزوج العباسية بنت المهدي وولي مصر
وفلسطين وتوفي بمصر وقبره بها لأنه لم يدفن ببغداد حياً.

ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

أما الحكيم النصراني الذي أحيا الموتى فهو رشيد الدين أبو الوحش بن الفارس أبي
الخير ابن أبي سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فائدة الذي اشتهر فينا بعد باسم أبي
حليقة. كان أبوه الفارس أبو الخير من رؤساء الجيش العامين فكان يلبس ولده لباس
الجنديّة مثل لباسه ويرشحه لخدمة في العسكرية مع المسلمين في محاربة الصليبيين كنا
جرت عادة الآباء في الشرق من جعل أبنائهم على حرفتهم. وذلك مصداق لما قاله
الإمام النووي في التحفة للإمام أو نائبه الاستعانة بأهل الذمة والاستئمان على العدو
بشرط أن تؤمن خيانتهم بأن يعرف حسن رأيهم فينا. ويشترط في جواز الاستعانة بهم
الاحتياج إليهم ولو بنحو خدمة أو قتال لقتنا. ونفعل بالمستعان بهم الأصح في
إفرادهم أو تفريقهم في الجيش وكانت دار الفارس أبي الخير ملاصقة لدار السلطان
العادل بمدينة الرها فاتفق أن الملك الكامل الأيوبي وهو ولي العهد دخل فيها الحمام
فأعطى الفارس لولده رشيد الدين فأكهة وماء ورد وأمره بحمله إلى الملك الكامل.
فيما خرج من الحمام وقدم الغلام بين تلك الألفاف أخذه معه وفرغ الأطباق من
الفاكهة وملاها شققاً سنية وسيرها لوالده. ثم أخذ الكامل بيد الغلام النصراني وعمره

يومئذ ثمانين سنين ودخل به على السلطان الملك العادل ولم يكن رآه من قبل فلما أبصره قال لملك الكامل: يا محمد هذا ابن الفارس لأنه أخذه بالشبه فقال: نعم.

قال: هات فحنله الملك الكامل ووضع بين يدي السلطان فلاعبه ولاطفه وتحدث معه حديثاً طويلاً ثم التفت إلى والده وقد كان قائماً في خدمته مع جملة القيام وقال له: ولدك هذا ولد ذكي لا تعلمه الجندية فالأجناد عندنا كثير وأنتم بيت مبارك وقد استبركنا بطبكم أرسله إلى الحكيم أبي سعيد (أي عبد مهذب الدين الذي ذكرناه في غير هذا الموضع) ليقرأ عليه الطب بدمشق فامثل والده فتخرج بها ثم جاء إلى القاهرة وكانت كعبة العلوم فأكمل دروسه بها وبرع حتى صار يشار إليه بالبنان هذا مع مواظبته على العبادة وتفقهه في دينه المسيحي وقرض المرقص المطرب من الشعر الرقيق المعجب ثم تولى السلطنة الملك الكامل واستقر بمصر فقرب رشيد الدين أبا الوحش وكان كثير الاحترام له فحظي عنده كثيراً حتى نال منه الإحسان الكثير والأنعام المتصل وأقطع على سبيل الجراية نصف بند عامرة بالشرقية تعرف بالعزيرية والخربة (وتعرف الآن بالعزيرية بمركز مينا القمح وهي منسوبة للعزير الفاطمي) ولم يزل في خدمة الكامل حتى مات فخدم ولده الملك الصالح ثم ولده الملك المعظم تورانشاه حتى قتل وجاءت دولة المماليك واستولوا على البلاد واحتلوا على المماليك الأيوبيين فأجروه على ما كان باسمه ثم خدم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالح وبقي في خدمته على عادته المستقرة وقاعدته المستقرة ولد منه الاحترام التام وجزيل الأنعام والإكرام حتى وفاه الحمام.

كانت له اليد الطولى في الطب فقد أمره الملك الكامل بعمل الترياق الفاروقي المشهور فسهر عليه الليالي حتى حقق مفرداته بشهادة أئمة الصناعة أبقراط وجالينوس ولما تعذر عليه حضور أدويته الصحيحة من الآفاق ركب مختصر ترياق توجد أدويته في كل مكان ونوى أن لا يقصد به قريباً من منك ولا طنب مال ولا جاه في الدنيا ولا يقصد به سوى التقرب من الله بنفع خلقه أجمعين وبذلك للنرضى مجاناً فكان يخلص به المفلوجين ويقوم به الأيدي المتقوسة ويسكن وجع القولنج ويفتت الحصى ويزيل ألم الأسنان لوقته وساعته فشاع أمره وتحدث به الخاص والعام حتى سألته السلطان وقال له: يا حكيم إيش هذا الترياق الذي عنده ولم تعطني به فقال: يا مولانا المسنوك لا يعمل شيئاً إلا لمولانا وما تأخرت عن العرض إلا لتجربته أما وقد أصبح هذا لمولانا فصار على ثقة منه فقد حصل المقصود فأمره بإحضاره فلم يكن عنده منه إلا شيء يسير لأن الخلائق كانت قد تهافت عليه فمضى إلى أصدقائه الذين أهداهم منه حتى جمع من وهناك أحد عشر درهماً وجعله في برنية من الفضة فاحتفظ عليها السلطان وكان يشكو من نزلة في أسنانه فما هو إلا أن وضع جزءاً صغيراً منه حتى زائده الألم وكأنه لم يكن.

أما إحياءه الميت: فقد مرضت دار من بعض الأدر السلطانية (أعني إحدى حظايا السلطان فإن السر في السكان) وكانت مقبلة بناحية العباسية وكان الملك الكامل لا يشرك مع هذا الطبيب أحداً في مداواته وفي مداواة من يعز عليه من دوره وأولاده فانقطع للعناية بها أياماً. ثم عرض له ما أوجب عليه الرجوع إلى القاهرة لمدة ثمانية عشر يوماً ثم عاد لعيادة مريضته بالعباسية فوجدها قد تولى علاجها جماعة من الأطباء

فاشترك معهم فحكىوا بأنهما تموت والمصلحة تقضي بإعلام السلطان قبل أن يفجأه أمرها بغتة فقال: إنها ليست عندي في مرض الموت فقال أكبرهم سناً (وكان رشيد الدين شافياً): إنني أكبر منك وقد باشرت من المرضى أكثر منك فتوافقني على كتابة هذه الرقعة. فأبى فقرر رأي الأطباء على كتابة الرقعة. فقال: لا أضع اسمي على هذه المطالعة. فلما وصل الخبر للسلطان بعث رسولا ومعه بخار ليعلن لها قابوتا تحبل فيه جنتها إلى القاهرة. فقال له الحكيم ما هذا النجار؟ قال لعنل التابوت. قال: تضعونها فيه وهي في الحياة؟ قال: بل بعد موته. قال: ارجع بهذا النجار وقل للسلطان عني خاصة أنها في هذه المرضة لا تموت. فلما كان الليل أرسل إليه السلطان بورقة بخطه يقول فيها: ابن الفارسي يحضر إلينا (لأنه لم يكن بعد سمي بأبي حليقة) فلما وصل إليه قال له: أنت منعت من عمل التابوت؟ قال نعم. قال بأي دليل ظهر لك من دون الأطباء كلهم. قال: لمعرفتي بمراجعتها وبأوقات مرضها على التحرير من دوائهم وليس عليها بأس في هذه المرضة. فقال: امض وطبها واجعل بالك لها. فذهب وداواها حتى عوفيت ثم أخرجها للسلطان فزوجها وولدت من زوجها أولاداً كثيرين.

هؤلاء هم الثلاثة الذين أحيوا الموتى على ما وصل إليه عني. أحدهم مصري وهو يهودي وثانيهم هندي استوطن بغداد وهو مسلم وثالثهم شامي استوطن مصر وهو نصراني. ولعنكم يا بني أمي ويا بني عني ترشدوني إلى مسلم وقبطي في مصر فاما بهذه الكرامة أو أن يقوم فيكم من يجدد لنا ذكرها والافتخار بها.

لعل الشام ترضى؟ كأي بها تقول: مني خرج المسيح وهو الذي أحيا الموتى! أفلا تذكر لي طبيباً واحداً من هذا القبيل حتى لا آكون بين الفسطاط والزوراء لا في العير ولا في النفير.

كان بها فلاح يرتوق وراء أخراث في قرية يبرود صار اسمه فيما بعد أبا الفرج جرجس البرودي. رأى فاصداً قد التوى عليه سد العرق فتوالى الرُعاف على المفصود. فقال له: يا هذا إلي أرى أبي في وقت سقي الكرم إذا نفتح شق في النهر لا يقدر على إمساكه دون أن يفتح فتحة أخرى ينقص به الماء الأول الواصل إلى ذلك الشق ثم يسده بعد ذلك. ففعل الجرائحي بهذه الإشارة وانقطع الرُعاف. ثم قال للفلاح: لو أنك تشغل بالطب لجاء منك طبيب حاذق. فوقرت هذه الكنية في صدره وأقبل على التعلم بدمشق وما كفاه ما حصل عليه حتى أخذ سواراً كان لأمه وذهب إلى بغداد فأنفق ثمنه على استكمال العلم وصار من أكبر النوابغ في هذا الفن. رأى يوماً في سوق جيرون بدمشق إنساناً راهن على أن يأكل أرطالا من لحم فرس مسلوق مما يباع في السوق فوقف وراه قد أمعن في الأكل بأكثر مما تحسب قواه ثم شرب بعده فقاعاً كثيراً وماءً بثلج فاضطربت أحواله وتفرس إنه لابد أن يغشى عليه فيصير إلى حالة يكون الموت أقرب إليه أن لم يتلاحق فتبعه إلى منزله واستشرف إلى ماذا يؤول أمره فلم يكن إلا أيسر وقت وأهدأ يصيحون ويضجون بالبكاء ويرعون إنه قد مات. فأتى إليهم وقال: أنا أبرئه وما عليه من بأس. ثم أنه أخذته إلى حمام قريب من ذلك الموضع وفتح فكبه كرهاً ثم سكب في حلقه ماءً مغلياً وقد أضاف إليه أدوية مقيمة لطيفة وقيأه برفق ثم عاجله وتلطف في مداواته حتى أفاق وعاد إلى صحته.

ولليروودي هذا كرامة ثانية من هذا القبيل حكاهما الطرطوشي في سراج الملوك:
مر رجل يبيع المشمش على خباز في دمشق فاشترى منه وجعل يأكله بالخبر الحار فلما
فرغ سقط مغشياً عليه فظفروا فإذا هو ميت وقضى الأطباء كنهم بموته فغسله أهله
وكفنوه وصلوا عليه. ثم خرجوا به إلى الجبانة فاستقبهم الليروودي صدقة على باب
البند وسمع الناس ينهجون بقضيته فقال: حظوه ثم أخذ يقبله وينظر في إمارات الحياة
التي يعرفها. ثم فتح عينه وسقاه أو حقنه فاندفع ما هناك فإذا الرجل قد فتح عينه
وتكلم وعاد كما كان إلى حانوته وأظنه تاب عن أكل المشمش ولو في المشمش. ولا
شك أنه يصح لنا أن نقول عن الليروودي أنه فلاح وفتح.

وبما أننا طرقنا باب الحياة بعد الموت فاسمحوا أن أنقل بكم بطريق الخاز إلى عالم هو
خير وأبقى. ثم نعود إلى هذه الدار بغاية التعجيل. فإنما كلامنا من باب المحاضرة
والتشيل ونحن اليوم في دار التشيل.

كثيراً ما يمتنع النصارى إذا قال جهال المسلمين عن أحدهم أنه هلك أو أنه هالك
وكأنهم أشبه الناس بعلي بك كشكش. إذ رأى صغار العامة أنه يحزن ويحرد إذا
قالوا له: كشكش فصاروا كلنا رأوه يقولون له: كشكش كشكش كشكش حتى
ضرب أحدهم بحجر فأدماه فأخذه الثور والثاير على رأي الأستاذ البرقوقي والجنواز
والجلاوزة على رأي الشرطة على رأيكم والبوليس على رأينا جميعاً وساقوه كنهم
إلى الحاكم فأخذ في تقييده فقال له: لست بمنوم يا سعادة الباشا. فقال: كيف ذلك.
قال: صلّ على النبي. قال اخافظ: النهم صل عليه. قال: زد النبي صلاة. قال: عليه
الصلاة والسلام. قال: ثم زده صلاة: قال: صلى الله عليه وسلم. قال: كرر الصلاة

فهي عبادة. فانفعل اخافظ وانتهر عني بك. فقال له: ويحك يا مولاي أنت حرنت من الصلاة عني النبي وهي خير ما يتقرب به العبد إلى الرب فكيف بي وكنتا مشيت خطوة سمعت كشكش كشكش كشكش.

تعلموا يا بني عني أن كل حي إلى الممات يصير وأن هذا الانتقال إما أن يكون بفعل فاعل أو بحكم انتهاء الأجل. ففي الحالة الأولى يستعمل النقط الموافق لإزهاق الروح مثل قتل، صلب، شق، خورق، أخ. أما في حالة الجهاد والاضطهاد عند المسلمين والنصارى فيقال: استشهد وتيخ. وفي الحالة الثانية يقال مات وقبض وتوفي وهناك وحضرته الوفاة وغير ذلك من التعبيرات التي تتحلى بأنواع الكنايات.

نقطة الخلاف في هنك. ولا أكتسكم أني مع هذه النقطة مثل بعض علماء النحو مع حتى: أعني أني أهنك وفي نفسي شيء من هنك بل النهم شيان أولهما فلسفي اجتماعي وهو الذي نحن بصددده الآن فإنه أوجب انفراج الخلف وسوء التفاهم بين أبناء الوطن الواحد وثانيهما لغوي إذا أزعجت الريب العائق بسببه تبدد الأول وزال.

يقول أهل اللغة في هنك ويهنك (من باب منع وضرب) ثم تكرموا وسوغوا لنا أن نقول في المنك هنك بكسر اللام بشرط أن يكون المضارع مفتوحاً (يهنك) أي من باب علم. ثم أمرونا أن نقول في المصدر هنكاً (بضم الهاء) وهلاكاً (بفتحها) وتهنوكاً وهنوكاً (بضم أولهما) ومهنكة ومهنكاً وقهنكة (بشيت اللام في الثلاثة) والنفة مثل العلم لا دين لها ولكنها قد تكون أيضاً وسيلة للتطع والحدقة والسفسطة.

ما هو معنى هنك بهذه التقعرات المتراكسة؟ قال الفيروز آبادي في القاموس. مات. وقال السيد مرتضى في تاج العروس ما نصده: مات تفسير لقوله هنك ولم يقيده بشيء

لأنه الأكثر في استعمالهم. واختصاصه بحمئة السوء عرف طارئ لا يعتد به بدليل ما لا يخصى من الآي والحديث أهـ. هذا هو المقرر في متون اللغة وبطونها ولا أنكر أن اللغة شيء والاستعمال شيء آخر. فننظر فيه أيضاً.

فهذا كتابنا يشهد علينا فقد جاء فيه: {كل شيء هالك إلا وجهه} {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك من بعده حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله رسلاً}. والأحاديث كثيرة وليس هذا محل إيرادهما.

أما استعمال العرب فأكثر من أن يحصر ولكني أمكتفي بشاهدين فذين أعرضهما بثالث. قال النابغة الجعدي في منك العرب المنذر بن النعمان المكنى بأبي قابوس (تعريفاً لنقطة كيكابوس الفارسية):

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ... جميع الناس والبند الحرام

وقال شاعر الإسلام في قيس بن عاصم وهو من أكابر الصحابة:

فما كان قيس هُنْكَه منك واحد ... ولكنه بتيان قوم قدما

والوزن يساعد على قول موته موت واحد وهذا أحد المرشحين للخلافة من بني أمية يقول عن نفسه والأنانية طبيعة في الإنسان

فإن أهلك أنا وولي عهدي ... فسروان أمير المؤمنين

وكان له مندوحة إذا قال: فإن أقبض وهذا أبو نواس يقول عن سائر الناس:

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وكان له مندوحة واسعة أن يستعمل: ميت وميت ومائتين. وبعد فهذا هي كتب السلف الصالح بين أيدينا جميعاً. نرى المسعودي في مروج الذهب والتنبيه والإشراف يقول هناك (بالهاء واللام والكاف) عن خلفاء المسلمين فضلاً عن كثير من الصحابة والتابعين وأكابر الأمة الإسلامية ومثله ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد.

وهما هو ابن قتيبة في كتاب المعارف يقول هناك (بالهاء واللام والكاف أيضاً) عن الحارث بن كندة طبيب العرب وعن عبد الله بن أبي بكر الصديق وعن بلال مؤذن الرسول عن عبد الله وسالم وواقدة وبلال أبناء عمر بن الخطاب وعن عمرو وعبد الله وعبد الملك أبناء عثمان بن عفان وعن محسن بن عني بن أبي طالب وعن طلحة بن الحسن بن عني بن أبي طالب وعن عروة ومصعب ابني الزبير بن العوام وعن معاذ بن جبل وابنيه وعن حذيفة بن اليمان وكنهم من جلة الصحابة وأكابرهم.

وهذا مؤرخ اخذتين ومحدث المؤرخين ابن عساكر يروي في تاريخه عن عمر بن الخطاب (وحسبي أن أقول عمر بن الخطاب) ما قاله العباس أخو عمر بن الخطاب. قال سألت الله حولاً بعد ما هناك عمر أن يريني عمر بن الخطاب وقال ابن عساكر في موضعين آخرين: فلما كان اليوم الذي هناك فيه عمر بن الخطاب وهناك عمر بن الخطاب فهذا اللفظ شائع مستفيض ولكن اصطلاح المتنطعين هو الذي جعل في النفوس حوازيات لا أصل لها. فإذا رجعنا إلى اللغة الصريحة والسنة الصحيحة زال ما في القلوب من غل فأصبحنا أخواناً على سرر متقابلين. فلما أحرانا يا بني أمي ويا بني عني بعد هذا البيان أن نقول لمن يؤذيه هذا اللفظ من الأقباط وسائر الدميمين:

كشكش! وأن نقول لنستطع باستعماله من المسلمين. صل على النبي! ما يحنو الكلام إلا بالصلاة على النبي.

فإن الشيخ المكين جرجس ابن عميد بن أبي المكارم بن أبي الطيب السرياني النصارى المصري كتبنا ذكر النبي أعقبه بقوله: صلى الله عليه وسلم وبقوله عليه الصلاة والسلام ولما ذكر وفاته قال: انتقل إلى رحمة الله ورضوانه وإذا جاء في سياق الحديث اسم واحد من الصحابة أو الأئمة أو الخلفاء أو شيوخ الإسلام دعا لهم بالرحمة والبركة والرضوان وذلك في كتابه المشهور عند غيرنا اجهول عندنا فقد طبعه أهل أوروبا باللغة العربية مع ترجمته باللاتينية بمدينة ليدن من أعمال هولاندة سنة 1625 ثم نقلوا ترجمته اللاتينية إلى اللغة الفرنسية في سنة 1675 ولا يزال العرب والمصريون إلى الآن محرومين من ورود مورده الأصلي مع أنه مكتوب بلغتهم وقد جراه في هذا السبيل ابن العري في كتاب مختصر الدول الذي طبع مع ترجمته اللاتينية في أكسفورد بانككترا أولاً في سنة 1663 ثم ترجموه إلى الألمانية في سنة 1783 وبقي عزيزاً على العرب حتى تفضل بطبعه اليسوعيون في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية سنة 1890.

جرتنا الكلام بمناسبة أو بغير مناسبة إلى ذكر الشيخ المكين والإشارة إلى تأليفه المفيد الذي سماه تاريخ المسلمين وهو من سوء الحظ عندنا في مصر من أندر النوادر. صدر هذا الفاضل كتابه بهذه الديباجة:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقى

الحمد لله المقدس بجميع اللغات المسجدة في سمو عرشه من سائر المخلوقات المتسير
 بوجوب الوجود عن جميع الكائنات المنفرد ببديع السناء وشريف الصفات المتعالي في
 عزه وجلال كبريائه عن الأشباه والنظراء بحاله من الجبروت والعظمة والكبرياء
 أحمدده حكم شاكر على ما أولى من النعماء وأجزل من العطاء. والمكين إنما جاء بكتابه
 متسماً ومكتملاً ومصدقاً لكتاب نظم الجوهر الذي ألفه البطريق القبطي ابن البطريق
 المتبحر في فنون الطب وفي مقالات النصارى والاختلافات الديانين الكائنة بين فرقهم
 المتشعبة. وقد رأيت كتابه في دير النطرون أثناء رحلتي إلى ذلك الوادي في سنة
 1894 وتركت عند بعضهم دراهم يسيرة لاستنساخه ثم تولاني وتولى صاحبي القبطي
 نسيان إلى الآن فنست أذكره ولا هو يذكرني ولن أذكره فإنه لم يذكرني. ولا بأس
 علينا في بقاء هذا الكتاب في تلك الجوانق والأعدال إذ قد سبقنا الإفرنج فطبعوه مع
 ترجمة اللاتينية بمدينة أكسفورد إحدى عاصمتي العثم بآنكرا في سنة 1659 وإن
 كانت مصر وأهلها لا تزال محرومة منه. ألف البطريق هذا الكتاب لأخيه عيسى
 وصدره بمخاطبته فقال:

بسم الواحد الأحد السرمدى وبه نستعين

ألمنك الله يا أخي من الأمور البهية أحسنها وأوفقها وصرف عنك من اغترافات الرديّة
 أعظمها وأوبقها وجنك من السر أعنه وأدام لك من العز أعظمه وإفاء بالدارين
 سهبك وفي الحالين قسبك وفهيك جميع ما يرضيه ولا أفرزك من حوله بما يستقصيه
 فهنت ما أمرت برسمه لك أسعدك الله بلبوس الفضيلة وطهرتك من التردى بأطمار
 الرزيلة. إلى أن قال أول ما تبدئ بحمد ربنا ويا ربنا وخالقنا ومحيينا جل ثناؤه إذ

كان حمده تقديس اسمه مفتاحاً لجميع الكتب والرسائل تسأل به عز وجل العون لنا على ذلك بحميد عاداته واخذ لله أهل اخذ ووليه الراجي به شكراً من عباده مقدر الأشياء من قبل كونها ومدبرها من بعد حدوثها الذي جعل الرحمة والعدل من سنن الحق وأمر بهما وجعل الفسق والجور من سبيل الباطل وهى عنهما. فالحمد لله المتفرد بالوحدانية فهو عز وجل بحوره الأدبي وحكمته القديمة وحياته الأزلية مستحق الحمد والثناء ومستوجب الخبة والثناء الذي لم يجعل في ناموسه شبهة تقتضي شكاً ولا في شريعته ارتياباً يوجب اختلافاً بل جعله واضحاً بيناً للشعوب على اختلافهم بالأسباب والجهات وعننا ظاهراً لساائر الأمم على تباينهم في الكلام واللغات بما أظهر على يدي أنبيائه ورسوله وما بعثه إليهم من المعجزات ومهولات الآيات ودعا إلى دينه ووعد بحميد النظر لمن آمن به وأوعد بسوء المنقلب لمن انحرف عنه وحمده حمداً يمتري من المزيد لإحسانه ويقتضي الرضى لديه وإياه أسأل وإليه أرغب في خلوص نياتنا لقبول ما يرضيه وصرف طوياتنا إلى ما يعود إلى العمل بطاعته.

أفرايتم هذا الإنشاء البديع وهذا الديبج الجميل الذي يرتضيه أكابر العلماء والأدباء من المسلمين؟ بل فتننا بالآخوانة الأقباط هجروا العناية باللغة وأنزلوها إلى ما هو متعارف في الدواوين وجرونا وراءهم في التلويح حتى إذا حاولنا إعادة بهجتها في الرسميات لم يتفاهموا ولم نتفاهمها؟ أفيظنون أنها من الدين؟ كلا وربكم وقد أتيتكم بشاهد مكين من ابن المكين وعززته بشاهد آخر عن طريق ابن البطريق. فهي الآن لغتهم شاذوا أو لم يشاذوا وليس لهم عنها من حميد بل شأنها في رقيبتهم وفي لسانهم شأن ذلك الرجل القادم على القطار من الصعيد إذا قال لجماعة من الأقباط

المتحدثين: أسقف على قلبكم. وسأورد لكم شيئاً عن المكين وابن البطريق فيما يتعلق بعلائق الارتباط بين المسلمين والأقباط لتعلموا أنهم كانوا سواء في الشدة والرخاء. وسأذكر لكم عنها أشياء كثيرة في عرض هذه الخطبة الطويلة أبدأ بالفتح الإسلامي فهو مفتاح كلامي ثم أشرق وأغرب وأصوب وأصعد وأنجد وأقم وبعد ذلك أكر على مصر حتى أصل إلى هذا العصر.

روى ابن البطريق أن أبا عبيدة بن الجراح خرج من القدس إلى حمص ومنها إلى قسرين فكتب إليه بطريقها يطلب المواعدة على نفسه سنة حتى ينحى الناس بهرقل الملك ومن أقام فيها فهو ذمة وصلاح. فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك فسأله البطريق وضع عنود بين الروم والمسلمين بحيث لا يجوز لأحد من الفريقين أن يتعداه إلى الآخر. وقد صور الروم في ذلك العنود صورة هرقل جالساً في ملكه. فرضي أبو عبيدة، واتفق أن نفر من المسلمين كانوا يمتنون على الفروسية إذ مر أحدهم وهو أبو جندل سهل بن عمر على العنود. فوضع زج رمحه في عين تلك الصورة غير متعبد لذلك ففقد عين الشمال. فأقبل البطريق وقال لأبي عبيدة: غدرتمونا يا معشر المسلمين ونقضتم الصلح وقطعتم الهدنة التي كانت بيننا وبينكم. فقال أبو عبيدة: فمن نقضه؟ قال البطريق: الذي فقد عينه منكنا. فقال أبو عبيدة: فما تريدون؟ فقال: لا نرضى حتى نفقد عين منكم. فقال أبو عبيدة: صوروا بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بي ما أحببت وما بدا لكم. فقال لا نرضى إلا بصورة ملككم الأكبر. فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك. فصورة الروم تمثل عمر بن الخطاب في عنود. وأقبل رجل ففقد عين الصورة برمحه.

فقال البطريق: قد أنصفتوه وبعد سنة أقاموا على الصلح والذمة وبهذه المثابة استبقى أبو عبيدة بسياسة أهل البند فلم يترحوا عنها.

وقرأت في كتاب الدروس الجغرافية لتلامذة المدارس الابتدائية لسيدى وأخي رشاد بك المطبوع في سنة 1889 أن مدينة بليس هي ثاني موضع قاتل فيه عمرو بن العاص بأرض مصر نحواً من الشهر ولما فتحها ورأى في جملة سباياها ابنة المقوقس ردها في جميع مالها مكرمة إلى أهلها.

وروى المكين أنه حينما كان عمرو بن العاص محاصراً للإسكندرية اقتحم حصناً منها فجاشت الروم عليهم وأخرجوا العرب منه وفي أثناء ذلك أسروا عمرو بن العاص ومسلمة ابن محمد ووردان مولى عمرو ورجلاً آخر. ولم يعرف الروم من هم فقال لهم البطريق: إنكم قد صرتم أسارى فعرفونا ما الذي تريدون منا؟ فقال لهم عمرو: إما أن تدخلوا في ديننا وإما أن تعطوا الجزية وإما أن نقاتلكم إلى أن نفيء لأمر الله. فقال واحد من الروم للبطريق: أتوهم أن هذا الرجل أمير القوم فاضرب عنقه. ففطن وردان لكلامه وكان يحسن الرومية وعمرو بن العاص لا يعرف شيئاً منها. فجذب عمرو جذباً شديداً ولكمه. وقال له: ما لك ولهذا القول وأنت أدنى من الجماعة وأقل فاترك غيرك يتكلم فقال البطريق في نفسه. لو كان هذا أمير القوم ما كان يفعل به هكذا. وقال مسلمة أن أميرنا قد كان عزم على أن ينصرف عن قتالكم وبهذا كتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأراد أن يوجه إليكم بعشرة قواد من أكابر القوم من يتفق معكم على شيء تتراضون عليه. فإن أحببتم ذلك فأطلقونا حتى نذهب إلى أميرنا ونعنده بما صنعتم بنا من الجليل ويتفق الأمر بينكم على ما نحب وتحبون

وتصرف عنكم. فتوهم الطريق أن هذا الكلام حق فأطلق سبيلهم رجاء أن يأتي
العشرة قواد فيقتلهم ويتسكن حينئذ من العرب. فلما خرجوا قال مسند لعمر و يا
عمر و لقد خلصت لك لكمة وردان.

أقول وشبه بذلك ما رواه ابن العبري من أن حاتمًا ملك الأرمن خرج عن مدينة
سيس قاصداً معسكر المغول ليؤدي الطاعة لملكهم. فخرج متنكراً مع رسوله له بزي
بعض الغنمان وأخذ على يده جنياً يجذبه خلف الرسول لأنه كان خائفاً من السلطان
صاحب الروم. وكان الرسول كلما مر ببند من بلاد الروم (آسيا الصغرى) يقول أن
الملك حاتم أرسله على ملك التار ليأخذ له الأمان فإذا أمانه توجه هو بنفسه إلى
حضرتة. قال ابن العبري: حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد
سنتين من عودته من خدمة مونككا قآن. قال عبرت بقيسارية وسواس مع الرسول
ولم يعرفني أحد من أهلها قط غلاماً دخلنا مدينة أرزنكان عرفني رجل من السوقية
كان قد سكن عندنا. فقال: إن كانتا هاتان عيني فهذا ملك سيس. فلما سمع الرسول
كلامه التفت إلي ولطمني على خدي وقال: يا نذل صرت تشبه بالملوك فاحسنت
اللبسة لأزيل بها ظن من كان ظنه يقيناً.

(للكلام صلة)

تهذيب الكلام

قال زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المشهور بابن أبي الإصبع المتوفى سنة
654 في كتابه تحرير التحبير الذي فرغ من تعليقه بمصر في مستهل سنة أربعين
ومستأنة وهو من أجمل كتب البديع ومن أهم مخطوطات دار الكتب المصرية في باب

التَهْدِيبُ والتَّأْدِيبُ: التَهْدِيبُ عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمده لينقح ويتبين منه لما مر على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر في العمل فيغير منه ما يجب تغييره ويحذف ما ينبغي حذفه ويصنح ما يتعين إصلاحه ويكشف عما يشكل عليه من غريبه وإعراجه ويحذر ما لم يتحذر من معانيد وألفاظه حتى تتكامل صحته وتروق بهجته.

فإن رزق من أرباب البلاغة وأصحاب الفصاحة جودة ذهن وغوص فكر وكنال عقل واعتدل مزاج وحسن اختيار ووقف على أقوال النقاد في حقيقة البلاغة وكنه الفصاحة وما غدا من محاسن الكلام وعيوبه ووقى شح نفسه بحيث يطرح ما لا يقدر على تغييره من كلامه فإن كلامه موصوفاً بالمهذب منعوتاً بالمنقح وإن قل ابتكاره للنعاني. وقد كان زهيراً معروفاً بالتنقيح فإنه يروى أنه كان يعمل القصيدة في شهر وينقحها في أحد عشر شهراً حتى سمي شعره الخولي الخلي ولا جرم أنه قلنا سقط منه شيء ولهذا أشار أبو تمام بقوله:

خذهما ابنه الفكر المهذب في الدجي ... والنيل أسود رقعة الجذب

فإنه إنما خص بهذب الفكر في الدجي لون النيل أنه قدأ فيه الأصوات وتسكن الحركات فيكون الفكر فيه مجتمعاً والخاطر خالياً ولا سيما في وسط النيل عندما تأخذ النفس حظها من راحة وتناول قسطها من النوم ويخف عليها ثل الغذاء فحينئذ يكون الذهن صحيحاً والصدر منشرحاً والقلب متبسّطاً. واختياره وسط النيل دون السحر مع ما فيه من رقة الهواء وخفة الغذاء وأخذ النفس سهلاً من الراحة لما يكون في السحر من انتباه أكثر الحيوان الناطق والبهيم وارتفاع معظم الأصوات وجرس

الحركات وتتشع الظنشاء بطلان الضوء وبيعض ذلك يتقسم الفكر ويتذبذب الخاطر ويشغل القلب ويتفرق مجتمع الهم ووسط الليل خال عما ذكرناه ولهذا خص أبو تمام تمذهب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين لما فيهما من الشواغل.

قال وكنت قد اطلعت على وصية وصى بها أبو تمام أبا عبادة البحتري في عمل الشعر. كان أبو تمام ارتحلها فجاءت محتاجة إلى تحرير بعض معانيها وإيضاح ما أشكل منها وزيادات يقتدر إليها فحردت منها ما يجب تحريره وأضفت عليها ما يتعين إضافته وذكرتها في كتابي المنعوت بالميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومة. وعلمت أن هذا الباب من هذا الكتاب أحوج إليها من ذلك فأثبتها هنا بعد أن رأيت تقديم مقدمة يحتاج إليها ويجب الاعتماد عليها وهي أن الذي يجب على كل من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء الشعر أن يعتبر أولاً نفسه ويمتحنها بالنظر في المعاني وتدقيق الفكر في استنباط المخترعات إذا وجد لها فطرة سليمة وجيلة موزونة وذكاء وقادراً سحرًا وفكرًا ثاقبًا وفهمًا سريعًا وبصيرة مبصرة وألمعية مهذبة وقوة حافظلة وقدرة حاكية وهمة عالية ولمحة فصيحة وفطنة صحيحة.

ولو كانت بعض هذه الأوصاف غير لازمة لرب الإنشاء ولا يضطر إليها أكثر الشعراء لكنها إذا أكتنت الشاعر والكاتب كان موصوفاً في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفسية التي إذا أضيفت لها الصفات الدرسية تكمل وتكمل من حفظ اللغات العربية وتوابعها من العلوم الأدبية كالنحو والتصريف والعروض والقوافي وما سُمح به الشعراء من الضرورات التي يدجيء إليها ضيق الوزن والتزام التقفية ليعلم بما يجوز له استعماله وما يجب عليه إهماله ولينعم النظر في كتب البلاغة ليعرف محاسن

اللفظ مفرداً وتركيباً ومعانيه ومحيط بما يتفرع من أصول النقد في البديع الذي هو
رقوم الكلام ونتائج مقدمات الإفهام.

وليجعل عندته على كتاب الله العزيز وليميز إعجازه وأدق تميز فإنه البحر الذي لا
تفنى عجائبه ولا يظلم فيه رأكبه. منها استخرجت درر اخاسن واستنبطت عيون المعاني
وعرف كنه البلاغة وتحقق سر الفصاحة وكذلك سنة الرسول عليه السلام. .
وليحفظ أشعار العرب وأمثالها وأنسابها وأيامها وسائر أخبارها ومحاسن آثارها ومقاتل
فرسانها الأنجاد ونوادر سمحاتها الأجواد ولا غنى به عن معرفة النجوم والأنواء وعلم
هيئة السماء وتعقل الآثار العنوية والحوادث الرضوية والمشاركة في الطب والطبائع
والحساب وما يحتاج إليه الكتاب من الفقه والحديث ونقل التاريخ الصحيح. ويكون
ذلك المكتسب من وراء أشياء لا تكتسب ولا تحصل بالطلب بل هي مما يجبل عليه
الإنسان من مواهب الرحمن من عقل راجح وذهن صاف ورأي سديد ينتج ذلك مزاج
معتدل فيحسن اختياره

ويجود انتخابه فيتخير الألفاظ الرقيقة والمعاني الرشيقة ويتقن تأليف الكلام وتركيب
الألفاظ وما يبراد أبيات قنتهن في هذا المعنى من بأس وهي:

انتخب لنقريض لفظاً رقيقاً ... كنسيم الرياض في الأسحار

فإذا اللفظ رق شَفَّ عن ال ... معنى فأبداه مثل ضوء النهار

مثل ما شفت الرجاجة جسيماً ... فاختفى لونها بنون العتار

هذا إن أراد أن يُنعت فاضلاً أو يسنى أدبياً كاملاً فتعلم بين العناء درجته وتطير بين
الفضلاء سمعته ويقل فتوره في لفظ الكلام ومعناه. وليحذر من أن يقف خاطره بسبب

معاندة الزمان وتواتر ضروب الحداث وتعدر المكسب وعز المطالب وتقدم الجهال واختصاص الأرزاق بالأموال فيكون ذلك داعياً له إلى ترك الاشتغال وسياً في فتور عزمه عن تحصيل العلوم وذريعة لعوده عن رياضة نفسه واستعمال خاطره فينحني بالأخسرين أعمالاً والمخطئين أفعالاً وأقوالاً. بل يكون اجتهاده في ذلك اجتهاد راغب في الأفعال شديد الأنفة من مساواة الجهال عاشق في تزكية نفسه مايل للتقدم بنفس العلم على أبناء جنسه وما أحسن قول القائل:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس علم كمن هو جاهل

وإن كبير العلم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه الخافل

ولا بد للاجتهاد من يوم يحسد فيه عاقبة اجتهاده ويحصل فيه على مراده وإن كان قصير الهمة مهين النفس قد أوتي طبعاً في العمل سليماً وذهناً مستقيماً فظن أنه يستغني بذلك عن الاشتغال ويبعد عن مماندة الجهال إدلالاً بطبعه واتكالا على حذقه واتكالا على حذقه كأكثر شعراء زماننا وكتابه المتظنين في سلك آدابه حاشا من احتفل بالأدب احتفالاً أوجب لذوي الآداب الانتفاع بهذا الكتاب فلا يأنف من عرض ما يسمح به خاطره على من يحسن الظن بمعرفته ويتحقق أن مرتبته في العلم فوق مرتبته ولا يهمل ذلك فإن خطره عظيم وفوق كل ذي علم عليم. وإن كنت في ذلك كمن يصف الدواء ولا يستعمله ويأمر بالمعروف ولا يمتثل غير أني ألهج الطريق وأحضر على التوفيق لتحصل لي مثوبة الدلالة وأكسب أجر الهداية فإن الدال على الخير كفاعله واخرض على العمل كعامله.

ويعتد الراغب في نظم الشعر وإنشاء النثر في وقت العمل على وصية الإمام أبي تمام الذي وعدت سلفاً بنشرها وهذا أو أن ذكرها وهي ما أخبر به الثقة عن أبي عبادة البحرى الشاعر أنه قال: كنت في حدثي أروم الشعر وكنت أرجع فيه على طبع سليم ولم أكن وقفت على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت أبا تمام وانقطعت إليه واتكنت على تعريفه عليه فكان أول ما قال لي يا أبا عبادة تحير الأوقات وأنت قليل المصنوع صفر من العنوم واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر وذلك أن النفس تكون قد أخذت حصتها من الراحة وقسطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء وصفاً من أكثر الأبخرة والأدخنة جسم الهواء وسنبت الغمام ورقت النسائم وتغنت الحنائم وتغن بالشعر فإن الغناء مضماره الذي يحسن فيه.

اجتهد في الإيضاح فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً وأكثر فيه من بيان الصباية وتوجع الكتابة وقلق الأشواق ولوعة الفراق والتعلل باستنشاق النسائم وغناء الحنائم والبروق اللامعة والنجوم الطالعة والتبرم بالعدال والعواذل والوقوف على الطلل الماحل. وإذا أخذت في مدح سي ذي أيد

فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن معالنه وشرف مقاومه وأرهف من عزائمه ورغب في مكارمه وتقاض المعاني واحذر الجهول منها. وإياك أن تشوب شعرك بالعبارة الزرية والألفاظ الوحشية وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الأجسام. وإذا عارضك الضجر فأرح خاطرك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه فإن الشهوة

نعم المعين. وجهلة الحال أن تعتبر لشعرك بما سلف من أشعار الماضين فيما استحسنته العلما فاقصده وما استبحوره فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى.

وكنت قد جمعت فصلاً يحتاج إليها العاقل في البلاغتين والراضع في الصناعتين من عدة كتب من كتب البلاغة وصرفت منها ما لا يحتاج إليه ونقحتها وحررتها وهما هي: ينبغي لك أيها الراغب في العمل السائر فيه من أوضح السبل بأن تحصل المعنى عند الشروع في تحرير الشعر وتحرير النثر قبل اللفظ والقوافي قبل الأبيات ولا تكره الخاطر على وزن مخصوص وروي مقصود وتوخ الكلام الجول دون الرذل والسهل دون الصعب والعذب دون المستكره والمستحسن دون المستهجن. ولا تعمل نظماً ولا نثراً عند الملل ولا تؤلف كلاماً وقت الضجر فإن الكثير معه قليل والنقيس معه خسيس. والخواطر ينابيع إذا رفق بها جمت وإذا غُف عليها نرحت. واكتب كل معنى يسبح وقيد كل فائدة تعرض فإن نتائج الأفكار تعرض كنسعة البرق ولمعة الطرف إن لم تقيد شردت وندت وإن لم تستعطف بالتكرار عليها صدت والترنم بالشعر مما يعين عليه قال الشاعر:

تغن بالشعر أما كنت قائمه ... إن الغناء لقول الشعر مضار

وقد يكل الشاعر حيناً ويستعصي عليه الشعر زماناً كما روي عن الفرزدق أنه قال: لقد يمر عليّ الزمن وإن قنع ضرر من أضراسي لأهون عليّ من أن أقول بيتاً واحداً فإن كان كذلك فأتركه حتى يحييتك عفواً وينقاد إليك طوعاً. وإياك وتعقيد المعاني وتعقير الألفاظ واعمل في أحب الأغراض إليك وفيما وافق طبعك والنفوس تعطي على الرغبة ما لا تعطي على الرهبة. واعمل الأبيات متفرقة بحسب ما يوجد بها الخاطر

ثم انظرونها في الآخر واحترس عند جمعها من عدم الترتيب. وتوخ حسن النسق عند التهذيب ليكون كلامك آخذاً بعرضه بأعناق بعض فهو أكمل لجسده وأمن لوصفه. واجعل المبدأ والمخلص والمقطع فإن ذلك أصعب ما في القصيدة. واجتهد في تجويد هذه المواضع وتجنب معارضة أرباب الخواطر وتعاودهم عليها وميز في فكرك محط الرسالة ومصيب القصيدة قبل العمل فإن ذلك سهل عليك واستعدها أولاً ونقحها ثانياً وكرر التنقيح وعاد التهذيب ولا تخرجها عنك إلا بعد تدقيق النقد وإنعام النظر.

فقد كان الخطيئة يعمل القصيدة في شهرين وينقحها في شهرين اقتداء بزهير فإنه كان راويته. وقد كان زهير يعمل القصيدة في شهر واحد وينقحها في حول كامل حتى قيل لشعره المنقح الحولي أو الحولي اخلنى. واحذر إذا كتبت من الإسراف في الشكر فإنه إبراهيم يوجب للكلام ثقلاً ولا تطل الدعاء فإنه يورث مذلاً. ولا تجعل كلامك مبيناً على السجع كنه فتظهر عليه الكلفة ويبين فيه أثر المشقة وتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط والنقطة النازل بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعاني واجتهد في تقويم المبادي فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان وإن عسر ذلك فاتركه وإن اختلفت أسجاعه وتباينت في التقفية مقاطعه فقد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة ولا يقصدونه بته إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت كسائهم متوازنة وألفاظهم متناسبة ومعانيهم ناصعة وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة وجمل كلامهم متسائلة. وتلك طريقة الإمام علي عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان

الكلام كائن المققع وسهل بن هارون وأبي عثمان الجاحظ وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء.

ولا تجعل كل الكلام عالياً شريفاً ولا وضعياً نازلاً بل فصله تفصيل العقود فإن العقد إذا كان كنهه نفسياً لا يظهر حسن فرائده ولا يبين كمال واسطته. وانظر إلى نظم القرآن العزيز كيف جمع صفات البلاغة الثلاث ليظهر فضل كل طبقة في بابها ويبين محكم أسرارها ويعلم أن أدناها بالنسبة إليها تعلو على أعلى الطبقات من كلام البغاء ويربي عليها فإن الكلام إذا كان منوعاً افتتحت الأسماع فيه ولم يندحق النفوس مثل من ألفاظه ومعانيه.

واعلم أن الألفاظ أجساد والمعاني أرواح. فإذا قويت الألفاظ فق المعاني وإذا أضعفتها فأضعفتها لتوازن قوى الكلام وتناسب في الإفهام. واقصد القوافي السهلة المستحسنة دون المستعصية المستهجنة والأوزان المستعملة الحلوة دون المهجورة الكرة فإن الشعر كالجواد والقوافي حوافره والألفاظ صورته والمعاني سرعته والأوزان جملته. واجعل كلامك كنهه كالتوقيعات وعليك بالمقطعات فإنها في القلوب أحلى وأكمل وفي الخاسن أرشقى وأجول وبالأسماع أعنى وبالأفواه أعبق. وإذا ثرت منظوماً فغير قوافي شعره إلى قوافي سجعه وإذا أخذت معنى بيت من بيت فتجنب الألفاظ جملتها مما استطعت أو معظمها وغير القافية والوزن وزد في معناه وانقص من لفظه واحترم مما طعن عليه به لتكون أملك له من قائده وإذا تقربت الديار تقاربت الأفكار. ولهذا قيل الشعر محجة يقع فيها الخاطر على الخاطر.

واعلم أن من الناس في شعره في البديهة أبدع منه في الروية ومن هو مجيد في رويته
وليس له بديهة وقلنا يتساويان. ومنهم من إذا خاطب أبدع وإذا كاتب قصر.
ومنهم من بضد ذلك. ومن قوي نظمه ضعف نثره ومن قوي نثره ضعف نظمه وقلنا
يتساويان. وقد يبرز الشاعر في معنى من معاني مقاصد الشعر دون غيره ولهذا قيل
أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والباغية إذا رهب وعنترة إذا
كذب والأعشى إذا طرب.

وإياك وتعقيد المعاني بسوء التركيب واستعمال اللفظ الوحشي فإن خير الكلام ما سبق
معناه القلب قبل وصول جنته إلى السمع. وليكن كلامك سليماً من التكلف بريئاً من
التعسف. وليحظ لفظك بمعناك وتشتمل عبارتك على مغزاك. واحذر الإطالة إلا فيما
تحمد فيه فإن البلاغة شدة دالة. وقيل سرعة جواب في صواب. وقيل أن تقول فلا
تبطل وأن تصيب فلا تخطئ. والصحيح من حدها أنها إيضاح المعنى بأقرب الطرق
وأسهلها. والعيب إكثار من مهذار وأخطاء بعد إبطاء كما جاء في في المثل سكنت ألفاً
ونطق خلفاً وقدر اللفظ على قدر المعنى لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه كما قيل في مدح
بعض البلغاء: كانت ألفاظه قوالب لمعانية. وقيل في آخر: كان إن أخذ شيراً كفاه وإن
أخذ طوماً أملاه. واستعمل التطويل في مكانه والتقصير في مكانه فقد قيل: إذا كان
الإيجاز كافياً كان التطويل عيماً وإذا كان التطويل واجباً كان التقصير عجزاً. وإياك أن
تفرط فإن فرطت قصرت أو تفرط فإن أفرطت كثرت وإلا فانظر إلى قصص الكتاب
العزير كيف أتت وجيرة ومرة بسيطة كما قلت في وصفه في القصيدة التي مدحت
رسول الله صلى الله عليه وسلم:

به قصص تأتينا طورا بسيطة ... ليفهنا من بسطها المتبند

وطورا بإيجاز تبث لذي حجي ... له زند فهم ثاقب ليس يصند

وفي الجملة مهنا كان الإيجاز كافيا والمعنى به واضحا فالإحاطة إن لم تكن عيا كانت عيا ولم يزل إجلاء المتقدمين يحدون ذلك ويذمون ما سواه ويدل على اختيار هذا المذهب ما يحكي عن أحمد بن يوسف الكاتب فإنه قال: دخلت يوما على المأمون وفي يده كتاب وهو يعاود قراءته تارة بعد أخرى. ويصعد فيه نظره ويصوبه وقال: فلما مرت على ذلك مدة التفت إلي وقال: يا أحمد أراك مفكرا فينا تراه مني فقلت: نعم وقى الله أمير المؤمنين المكاره وأعاده من المخاوف فقال: إنه لا مكروه في الكتاب ولكن قرأت فيه كلاما وجدته نظير ما سمعت الرشيد رحمه الله بقوله في البلاغة فإني سمعته يقول: البلاغة التباعد من الإطالة والقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى. وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب ورمى به إلي وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا قال: فقرأته فإذا فيه: كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون عليه طاعة جند حُرنت أرزاقهم وانقياد كافة تراخت أعطياهم فاختلت لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم. قال: فلما قرأه قال لي: يا أحمد إن استحسان هذا الكلام بعثني على أن أمرت لنجد قبله بعطياهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه محله في صناعته.

وروي أيضا عن المأمون أنه أمر عمرو بن مسعدة الكاتب هذا أن يكتب لرجل يعنى به إلى بعض العمال بالوصية عليه وأن يختصر كتابه ما أمكنه حتى يكون ما يكتب به

في سطر واحد فكتب عمرو بن مسعدة: كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معني بما كتب به ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله إن شاء الله تعالى.

وقد كان جعفر بن يحيى مع تقدمه في هذه الصناعة يقول لكتابه: إن استطعتم أن يكون كلامكم كنه مثل التوقيعات فافعلوا. وأما قول قيس بن خازجة لما قيل له ما عندك من جمالات داحس فقال عندي قرى كل نازل ورضى كل سائح وخطبة من له من طنوع الشمس إلى أ. تغرب أمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع فإن ذلك لم يخرج مخرج المدح للإطالة المذمومة لأن الإطالة المذمومة هي إطالة العبارة عن المعنى الواحد بالألفاظ الكثيرة. وإنما أراد قيس الإكثار من المعاني فإذا كثرت المعاني احتاج المتكلم إلى كثرة الألفاظ للعبارة عنها ولايضاحها وليوفي بمقصوده فيها. ومتى أطال الكلام لذلك كانت إطالته بلاغة لا عيباً فإن حقيقة البلاغة إيجاز من غير إخلال وإطناب من غير إمالة لاسيما خطب الإملكات والسجلات التي تقرأ على رؤوس الجماعات.

أهـ.

أقسام التاريخ

التاريخ فرع واسع من أهم فروع الأدبيات المنثورة ينتهي بوقائعه المتسلسلة إلى درجة المشاهدات من حيث التحقيق والبحث. وعليه فتكون كنية استوريا التي يقصد بها الروم البحث عن الحقيقة — منطبقة كل الانطباق على هذا العلم وموافقة كل الموافقة لموضوعه.

وبعد فإننا نرى أن التاريخ تلك الأفاصيص والنقول التي تأتي في عرض أناشيد الملاحم وعن أسن الفصحاء بل لا بد لذهود التي يرويها التاريخ من الاستناد على أبحاث

علمية معروفة وشهادات مزكاة وثيقة فله في البحث عن الوقائع وتثبيت الحوادث مقاصد كما أن لأصول ضبطه شرائط عامة كثيرة.

ليس للتاريخ أن يوغل في زوايا هذه الطبيعة الغنية فيضبط من حوادثها ما يتجلى كل يوم في مئات من ألوانها وصورها والألوف من أشكالها وميائها بل أن غاية الوحيدة تدوين حياة الأفراد المتميزين بقوة ذكائهم وقوة إرادتهم أولئك الذين تقدموا أشواطاً في سبيل النشوء ولو عادت ثانية مضت من الزمان لرأهم أرقى مما كانت تعهدهم.

أما الكائنات التي لم تمنحها العوامل والمؤثرات خاصة التدبير والذكاء فتسير وقائعها بسائق طبيعي متأثرة بمؤثر واحد سارية على مجرى واحد وماثلة في صورة واحدة. وإن البحث في ماضي هذه لا يجدي التاريخ نفعاً لأن هذا القسم من الحقيقة متساوي النسق والأسلوب في كل زمان ومكان. فإن أفاد البحث فيها فالفائدة تعود على العلم وليس للتاريخ منها شيء ولعل بعضهم يسأل هنا قائلاً: إذا كان التاريخ لبا يبحث في حوادث الطبيعة المطردة فلماذا دعي القسم الكبير من علومها — الحيوان والنبات والجماد — بالتاريخ الطبيعي وأي علاقة للتاريخ بهذه الحوادث القانونية المطردة؟ والجواب عن ذلك أنه لا محل لهذه التسمية هنا وليس للتاريخ فيها دخل البتة وإنما هو اسم اصطلاح عليه خطأ في هذا القسم من العلم فحادثات تكون الكائنات ونشوءها وتبدل المواسم وفصولها وكل قطعة محدودة من الأرض وكل ما عظم أو دق مقياسه ومقداره من سيارات السماء وثوابتها الزاهية وصفحات الفضاء ومناظرة البهجة كل هذه ليست من التاريخ في شيء ولئن دخل قليل منها في التاريخ فإنها تدخل بعض أحوالها المتعاقبة ومكتشفاتها المهمة التي لا تزال أدوارها مجهولة عندنا.

وعلى هذا فالتاريخ يبدأ من حيث ينتهي العنم وليس في أقسام التاريخ (تاريخ إلهي) لأنه لا ماضي للألوهية فيسطر ولا حال لها فيحرر بل هي هي المتجنية في كل شيء وما أجمل قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

وبذلك استبان أن مجال التاريخ هو (ساحة التبدل الاختياري) ليس إلا. وإن للنوع البشري قوة إرادة وإن اختلفت قوة وضعفاً لا تكون فيها هو عامل فيه من التواميس العامة بل في غير ذلك من حركاته وسكناته. من أجل ذلك ترى هذا النوع معرضاً للبحث التاريخي من حيث عنم أجناس البشر والبحث العنسي من حيث عنم النفس.

هذا يبحث في الإنسان من حيث العوامل الناشئة عن القوانين العامة المنقاد لها وذاك يشتغل بفحص ما في حركاته الاختيارية من الأسباب المتحولة من الأسباب المتغيرة ونتائجها ويظهر لنا ما قرب إلى التوفيق من هذه الحركات وما لم يقرب وما كان مصيباً منها وما كان مخطئاً وهو يضبط الروابط الموجودة بين هذه الحركات كلها.

كانت الأمم فيما مضى تجل التاريخ وتعظمه حتى فتحت لتقدمه السبل وأزالت من طريق رقيه الموانع قال شيشرون الخطيب الروماني الشهير التاريخ شاهد الأزمنة ونور الحقيقة وحياة الذكرى وحاكم العمر وبريد القرون وكان هذا الخطيب ينظر إلى التاريخ بأنه ظهير الفلسفة وأنه مدرسة الفضيلة.

وكان يعد التاريخ منهجاً من مناهج البيان وقسماً من أقسام الفصاحة لعظمة الدروس التي ألغها التاريخ وفخامة موقعها ولطالما قال: لا خطيب أكثر عظمة وأوفر احتشاماً من التاريخ.

بمثل كُنُيات شيشرون هذه انتشر بين أهل العلم في العصور الموعنة في القدم أن التاريخ محل البلاغة وأدخند تلاميذ أيووقراط في عداد العلوم التي يجب على الخطيب أن يعنى بها فكان بذلك ركناً للأدب.

كان الأقدمون من المؤرخين يتعمدون في التاريخ إجادة البيان من جهة وإحاطة على الواجبات الوطنية والنتائج الأخلاقية من جهة أخرى. أما الحقائق الواقعة في نفس الأمر فقلها كان يبحث عنها فكانت مصنفاتهم إذن تزدان في نظرهم إذا خدمت الفلسفة أو ذبت عن شرف القومية والوطنية ليس إلا.

هم يسلكون في التاريخ طريقاً توصلهم إلى الذروة القصوى من الفصاحة فيقرعون أضخم كُنُيات الجند وأكبر ألفاظ الفخفخة كُنُيات هو الحال في نقلهم حياة الرؤساء والأمراء وأنهم لينسبون إليهم جملاً وقطعاً ما قالوها ولن يقدرُوا على أن يأتوا بمثلها وأنت ترى المؤرخ منهم يفادي بالحقيقة التاريخية سعياً وراء كُنُيات جهمنة يند له طينها في أدنيه ناسياً أو متناسياً أن ما يسنى بالتاريخ هو علم الكوائن وتصوير الحقائق وأنه في حاجة قبل كل شيء على مظان صحيحة ومستندات موثوق بها وأسس راسخة فيجب من ثم على المؤرخ مهياً كانت لمحتد وشعوره ومقصده أن يبحث في مثل المظان من غير تطرف ولا تعصب.

وذلك لأن التطرف والتعصب والذلافة ليست من حاجيات المؤرخ ومذهبه في شيء وإنما البلاغة والتأنق في القول من صنعة الأدباء والشعراء والمطالبة بالفضيلة من وظائف الأخلاقيين والدفاع عن شرف الوطنية والمكانة القومية من واجبات رجال السياسة فيها وما المؤرخ إلا الذي يمحض الحقيقة ويتحصى لإثباتها.

ولقد التزم فينلون أحد فلاسفة لويس الرابع عشر أسلوب شيشرون الخطابي في كتابه مبحث الوجود الإلهي فاتخذ ذلك دليلاً على أن التاريخ كان على عهد فينلون في دور صباه ولا يكون المؤرخ مؤرخاً حتى يثبت الوقائع التي يناقش في صحتها مناقشة منطقية ويفحصها فحصاً علمياً مدققاً ببيان سند ونشر ومرسل وسليقة معتدلة.

قال المسيو باتان المشهور بمباحثه في أصحاب الملاحم من الروم المتوفى سنة 1876: ليس التاريخ عبارة عن سرد بعض القصص وذكر الأيام المشهورة والحوادث الماثورة ولا تنفيق ما يسقط عليه الرجل عرضاً من الأقوال عن حياة المشاهير بل التاريخ هو ذلك الميدان الذي تظهر فيه الأمم بعاداتها وأخلاقها ومزاياها ومعاييرها مشروحة تتجلى بكل وسائل العلم حتى كأن القارئ من أهل البلد الذي يكتب تاريخه أو من معاصريه من يدون ماضي حياتهم وكذلك يجب التاريخ أن يكون. وإنك لتعلم أن مدون هذا التاريخ تعوزه المواهب النادرة والنظر البعيد وسر غور الأمور.

لا يبحث التاريخ اليوم عن طرز معيشة الأمم والبيوت فقط بل يتجاوز ذلك إلى تعريف درجة الرقي العام في الأشياء أيضاً فإذا بحث المؤرخ في ماضي شعب يجتهد في أن لا يحمّد أمام وقائع المهمة وحوادثه الكبيرة بل ينتقل من ذلك بغتة إلى وزن أخلاقه وعاداته ومشاربه وإلى ذكر روابطه مع سائر الأمم الأخرى. هذه المباحث هي ألياف النسيج الحيوي في الأمم المتحضرة وغير المتحضرة.

ومن هنا يتجلى للقارئ أن هذه المواد المتنوعة في حاجة إلى ترتيب حسن وفكرة نافذة دقيقة وحكم عقلي متين قادر على البحث عن الأسباب المتضاربة ووضعها موضع النظر وإلى قلم بعيد عن الأغراض كأنه جنود إذا كان سبيل لتغلب العواطف عليه

ومثل هذه المزايا متوقفة على مقدار قابلية أولئك المؤرخين الذين جمعوها في نفوسهم فاستخرجوا من كتلة الحوادث المتسلسلة سديماً نقياً وأرسلوها نقشة البيان والوضوح النوراني على العالمين. وإن للتاريخ من حيث موضوعه وأصوله أقساماً عديدة أهمها انقسامه إلى عام وخاص يبحث الأول في أدوار البشر الثلاثة المعنومة ويشمل تاريخ عامة الشعوب والدول. أما الثاني فلا يعنى إلا بأمة واحدة أو بلدة معينة أو بأسرة معروفة ووقعة مشهورة.

ويسمى التاريخ الذي يذكر الحوادث مرتبة حسب زمن حدوثها كرونولوجيا وإذا بحث في نشوء شعب واحد وانتشاره يقال له أيتوكرافيا وإذا أفاض في كوائن الأمم كلها الحادثة في زمن معين يدعى سينكروفيا. وإذا قايى بين وقائع مختلفة ظهرت في أزمنة متباينة سمي التاريخ القياسي وإذا أظهر الأشياء في صورتها الأصلية فهو التاريخ المصور وإذا توحى إرجاع نتائج الوقائع إلى أسبابها يقال له براكماتيك وإذا ربط الأسباب بالتواميس العامة في البشر والطبيعة يسمى التاريخ الفلسفي وهكذا تختلف أسماء المصنفات التاريخية باختلاف موضوعها فتسمى تقويمياً ومذكرة وتوجهة حال وما أشبه.

ولا نقصد هنا إلى أن نطيل القول فنكتب تاريخ التاريخ. على أننا لو بحثنا في مبدأ التاريخ لوجدناه ممزوجاً بالشعر كما هو الحال في جميع أنواع الأدبيات المنشورة فابتداء التاريخ إذن هو الملاحم التي هي من أنواع الشعر وذلك هو ابتداءه في الأدوار القديمة عند الهنود واللاتين والفرس ولم يتجرد كثيراً عن هذه الكسوة القصصية عند بعض أمم المشرق إلى يوم الناس هذا لأن التاريخ لم يتسلخ عن منظومات الملاحم عندهم إلا

قبيلاً وأن دباله التاريخ الحقيقي لم تكد تضيء عندهم حتى أطفئت وكذلك هيروودس وتوسيديدس وكسنوفون كلهم لم ينجوا من دس الأساطير بين طيات الحقائق التاريخية في كتبهم الشينة وإن كانوا كلهم استحقوا لقب المؤرخ. الأول بذكائه النقاب والآخران بتجاربهما ومثاله بياهما. أما دانيس داليكارنامس فلا أثر للتحقيق في مصنفاته وإن كان قد تلافي هذا النقص بتتبع بعض الأخبار. وكذلك شأن تيودورس من وجد هذا النقص وما يسده وإن دروس بنوتارك في الأخلاق لتستر أيضاً نقائص تاريخية أخرى وقع فيها. ثم جاء بعد هؤلاء أزمان ظهر فيها مؤرخون مدرسيون مثل كيشاردن وماكيا فيل فبهما كانا في زمانهما مقندين خالص التقيد للأسلوب القديم. 3

وعلى هذا بقيت المصنفات التاريخية كتب بلاغة ولكنها عارية عما يؤهلها للدخول في علم التاريخ إلى فجر القرن السابع عشر حتى أن المؤرخ المشهور بوسويه نفسه كان على مثل تلك الحال ولو تناولنا أحد مصنفاته كخطبته في التاريخ العام لوجدناها نموذجاً للأدب ولكنها بعيدة كل البعد عن التاريخ. ثم جاء فولتر ووضع كتابه كارلوس الثاني عشر وكتابه لويس الرابع عشر فأظهر نموذج التاريخ الصحيح. وعندما عرف حق المعرفة أن أكثر الذين كانوا يسكنون في فرنسا مؤرخين إلى القرن الثامن عشر براء من هذه النسبة. وعلى العكس ترى بعض رهبان ديكن الذي لم يكن ذكر اسمهم بتلك الدبدبة والعظمة قد تحقق اليوم أنهم هم الشيوخ الذين طرخوا بين أيدينا أصول التاريخ صامتين ساكتين. ومن هؤلاء الرجال المؤرخ جيبون الإنكليزي مشيد القصر التاريخي على الأساس المتين.

عصرنا الحاضر هو مؤسس التاريخ ومحيطه فعلم الآثار وعلم الألسنة والجغرافيا، وكل هذه العلوم أخذت بيد التاريخ وصعدت به درجات عالية وإن التحقيقات الصحيحة التي وضعها حكماء هذا العصر وعلماءه قد نفحت الوقائع الماضية روحاً حية وكستها حلة ثابتة حتى تمتثل الذراري القديمة بعاداتها وأخلاقها ومطامعها وأفكارها على أسلوب أقلام تيرس وتيري وميشنه وكيزومينيه. فعصرنا هذا ولا وراء عصر التاريخ قبل كل شيء.

الحديدة (جزيرة العرب)

محب الدين الخطيب

إصلاح التعليم في الصين

كتب أحد الباحثين من الأوروبيين رسالة في معنى لمحنة الصين إلى إصلاح التعليم القديم عندها فقال أن هذه المسئكة كانت لها طريقة تامة في التعليم منذ القرن الرابع والعشرين قبل التاريخ المسيحي على عهد حكم ملوك هيا فكان لكل أسرة قاعة للدرس ولكل كورة كتاب ولكل مقاطعة مدرسة فيستحق المتعلمون كل سنة ويرتقي الأكفاء إلى مناصب الحكومة وفي القرن الثامن قبل المسيح بطلت طريقة إعطاء الوظائف بالاستحقاق العنسي وأصبحت وراثية إلا أن كنفوشيوس حكيم تلك الأمة جاء في القرن التالي وأحيا معالم التعليم على الأصول القديمة ونظمها فأحسن تنظيمها حتى أصبحت بعده محترمة في أقطار المسئكة وما زالت تعاليمه معمولاً بها وتختلف لضعف أنصارها وقوتهم في بعض القرون وبقوة البوذية والتاوسية حتى كانت سنة

1904 فأصدر الإمبراطور أمره بإلغاء الأوامر القديمة الصادرة بشأن التعليم التقليدي وبذلك ألغى نظاماً اجتماعياً جرت عليه أمتة منذ خمسة وأربعين قرناً. وقد شعرت الصين منذ حروبها الأولى مع أوروبا بقوة التعليم في موظفيها وتبين لنظام الإمبراطوري أن ذلك كان السبب الرئيسي في ضعف المملكة ولذلك عزم الإمبراطور منذ سنة 1898 أن لا يمنح الوظائف إلا لمن اطلعوا على العلوم الحديثة الأوروبية فأصدر أمره بإنشاء مدارس على الطراز الحديث وإقامة كنيّة في بكين على مثال كنيّات أوروبا وفي سنة 906 ألف نظارة معارف عمومية وكان من أثر ذلك أن توفرت العناية بتعليم البنات وكانت النساء من قبل مقصورات في بيوتهن معتبرات في نظر الصينيين أحط من الرجال وأهم ما يعلنه في المدارس الكثيرة التي أنشئت لتخرجهن الأخلاق والمالية وأعمال البيوت والرياضيات الجسدية ويمنعن من تضيق أرجلهن منعاً قطعياً.

وكثر عدد المدارس الخاصة والعامة التي أنشئت مؤخراً لتعليم الفنون المختلفة كالصناعة والملاحة وعمل الخطوط الحديدية والبحرية والشرطة وعلم التربية واللغات الأجنبية. وساعد الأدباء والعلماء والصحافيون على خدمة أفكار الحكومة في هذا الشأن وأخذوا يؤلفون الكتب والمعاجم ويترجمون من لغات أوروبا كل مفيد لكي يفهم وأخذت الحكومة والأهالي يحاولون إيجاد الأموال لهذه المشاريع ومن جملة الذرائع التي عندوا إليها ضمهم الضرائب على محال تناول الشاي لتصرف في سبيل تعليم الأمة. وقد خطر على الأساتذة أن يهينوا التعليم القديمة فجاء في لوائح المدارس بهذا الصدد إن للنظام الاجتماعي والسياسي في ممالك أوروبا وأميركا واليابان صيغة خاصة به كنها

أ. إدارة الصين وأخلاقها لها صفة خاصة بنا فعلى كل أستاذ صيني أن لا يتفوه بكلام يعد مروقاً وكفراً لديك بما ثبت من أفكاره بناء الصين الاجتماعي والسياسي فإذا انتقد الفضائل الأصلية والصلات العامة مع الفلسفة المشهورة (فلسفة علماء الأدب وكنفوشيوس) يحقق أمره فإذا ثبت إدانته يحكم عليه بحسب ذنبه وحظر على التلاميذ أن يشتغلوا بالأمور السياسية ويعقدوا اجتماعات وينشروا جرائد.

ولا يحطرون على بال أحد أن التعاليم القديمة سقطت في الصين بالمرّة بل بالعكس زادت العناية بها على قدر العناية بالعلوم الغربية الجديدة ولا تأتي سنة 1900 حتى ينتظم أساس الإصلاح الذي وضعته مملكة ابن السماء وهي تأخذ العلم الآن عن أربع دول اليابان والولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا ولكن اليابان أقدموا على تعليم الصينيين إقداماً غريباً وفتحوا لهم المدارس في عاصمتهم بكين بالذات وغيرها من الحواضر وكل يوم يزداد عدد الطالبين والطالبات من الصينيين الذين يتأتون كنيات اليابان ويدرسون فيها كما أن المعلمات اليابانيات والمعلمين اليابانيين يفدون بالعشرات على المملكة السماوية ولا سيما على جنوبها.

الكتاب

حدثنا القراء في النسخة الماضية بشيء مما عربناه من الكتاب الذي صدر حديثاً لتسيو البرسيم وها نحن ننقل لهم بعض فوائده جديرة بالنظر والاعتبار فقد قال في تأثيرات المطالعة في المرء ولا سيما ما يطالعه في صغره نقلاً عن كتاب عشاق الكتب لألفرد دي ماترون العارف بالتأليف والتصنيف: إن المرء في صباه لا يهتم بشكل الكتاب جميلاً كان أو بشعاً حسن التجليد أو سيئ بل يضحك من يقول له أن طبعة

هذا الكتاب أصبحت نادرة وأن هذه الفقرة غريبة وأن هذه الأسفار نال مؤلفوها الجوائز عليها ولا يحتفل إلا بالفكر ولا سيما بما فيه شعور وعواطف ولا يعبأ إلا بما يرضي فؤاده ويشير عواطفه ويحركها. فآف من الفكر والجمال والتذهيب الجميل. ولذلك لا ترى مولعاً في الكتب وهو في سن العشرين لأن المرء في صباه لا يستطيع أن يعاود قراءة كتاب قرأه فلا يكاد يحسن القراءة حتى يأتي على آخر ما يقرأ ولا سبيل إلى الحكم جيداً على كتاب إلا بمطالعة ثانية وفي أدوار مختلفة من الحياة ومن ثم كان من الكتب ميزان حرارة للعقل أو للنقلب.

قال ألفرد دي ماثرون: إن المرء في العشرين من عمره لا يكون من غلاة الكتب وأحبائها وما قاله يصح أن يكون قاعدة في هذا الباب لأن العواطف في سن العشرين تحكم على العقل بل تحكم على كل شيء فيسرع المرء في تلك السن إلى الوقوف على كل شيء ويعرف كل شيء ويقرأ كل شيء ون شئت فقل يقلب صفحات كل كتاب. ويندر في تلك السن السعيدة من يستطيعون أن يعادوا قراءة كتاب ثانية بدون أن يكرههم مكره فيأتون ذلك إما مدفوعين برغبة منهم أو لقلة ما لديهم من الكتب الجديدة أو كتب لم يقرأوها بعد ولم يتصفحوها.

وقال آخر: لا يشرع المرء بمعرفة القراءة إلا بعد خروجه من المدرسة. وفتيان المطالعين لا يحبون من الكتب إلا ما حدث وضعه وقلنا يرجعون إلى الكتب المؤلفة قديماً. وأورد المؤلف أسماء كثيرين أولعوا بالمطالعة منذ عرفوا القراءة بل منذ فطنوا عن أئداء أمهاتهم مثل أسقف دافرانس هوييه (1630 — 1721) والفيلسوف جان جاك روسو (1712 — 1778) والشاعر يوحنا أنطون بوشه (1745 — 1794)

وبنيامين فرنكلين (1706 — 1790) وهنري بيل القصصي النقاد الفرنسيون
(1783 — 1842) ولامارتين الكاتب الفرنسي (1790 — 1869) وسينفيو
بنيكو الأديب الإيطالي (1789 — 1854)

وجورج ساند قصصية الفرنسية (1804 — 1876) وشارل ديكنز وكنهم ما
كادوا يفتحون عيونهم إلا والكتاب بأيديهم بفضل تربية آبائهم وأمهاتهم الذين كان
بعضهم يقرأ لهم ليسمعهم سير العظماء وأقوال الحكماء فانغمست البذور الصالحة في
عقول أبنائهم وجاء منهم فلاسفة وكتاب متفردون وتبين لما استشهد به لهم من
تذكراتهم أن معظمهم كانوا يعيشون الخلاء بين الرياض والغياض يطربهم صوت
العندليب ويؤرقهم صوت القمر ويستفهم خربير الماء وعليل الهواء.

وقال في فصل المطالعة والتصفح: جعل سنس الطبيب الروماني في القرن الأول قبل
المسيح القراءى بصوت عال من جملة الرياضيات النافعة للنصحة وأن المطالعة على هذه
الصورة ضرورية لفهم الذوق وذلك لأن جرس الصوت يساعد كل المساعدة على
تعليق الجمل في الذهن. وقد قال العالم أرنست لوكوفه أنه لا شيء ينير عقلنا مثل
القراءة بصوت جهوري ويقفنا على ضعف الإنشاء إن كان ضعيفاً وقوته إن كان قوياً
وفساد الشعور المصور فيه. ففي الكلام تنشيط وفيه للأفكار إيضاح بل تحقيق وكل
من يتعاطون عملاً شاقاً كالحطابين والخبازين يتحسسون بما يلقونه بعضهم على بعض من
الأصوات ولا يرى دودان أن يقرأ قارئ للإنسان بل أن يقرأ بنفسه ويرى أن الطريقة
الأولى أجدر بالمرضى والعريان لأن لكل قارئ نعمة يكون بها التأثير في عقده وله
طريقة في الفهم والتسعين لا يقوم بها سواه.

ومن العادة في بعض المدارس والأديار أن يقرأ قارئ شيئاً من الأدب والقصص والتلاميذ جنوس على المائدة وكان ذلك شأن شارلمان يتلى على مسامعه وهو على الحوان كتاب القديس أوغسطينس وكان الفيلسوف فولتير يؤثر أن يقرأ له وقال: إنني أحب هذه الطريقة لأنها كانت مألوفة لتقديماء وأنا منهم. وكان الكردينال موري (1746 — 1718) يقول أن المرء إذا خلا بنفسه يجب أن يطالع كتباً تفيد حقيقته وإذا كان مع أخوانه فالأجدر أن يتلى عليه ما يحسنه ويهيجه لأن الناس في انفرادهم غيرهم في اجتماعهم.

قال مؤلفنا: أما كتب الحكم والآراء فالأحرى بل الأفيد بأن تتلى قطعة قطعة لا دفعة واحدة وأن ترسخ بكميات قليلة فكما أن المرء لا يبيع أقراص المعاجين إلا واحداً واحداً هكذا يجب عليه أن يسير في الأخذ من كتب الحكماء. وقال الأميرلين (1735 — 1814) أن الطريقة الوحيدة في مطالعة كتاب من الحكم بدون أن يعمل هو أن يفتح كتاباً من كتب الفرص وبعد أن يسقط فيه على ما يهينه منه يطبقه بعد تصفحه صفحة أو صفتين ويأخذ يفكر فإذا تصفحها كلها يكون أشبه بمن قلب مجموعة صور دفعة واحدة فلا يرسم بمخيلته واحدة منها.

وتختلف طريقة المطالعة بسرعة أو بتأن بلا فاصلة أو بفاصلة بقليلة أو بكثرة وهذا تابع لحالة القارئ وما يقرأ وحالة بصره وقوة انتباهه وأوقاته وخطر ما يتنوه وتأثير الكتاب فيه. وإن كتاباً في الفلسفة لا يقرأ كما تقرأ قصة وخير في الكتب المملة أن تتصفح تصفحاً وكل من يعيشون بين الكتب والمطبوعات والمخطوطات ويبحثون كثيراً فيما بين أيديهم لا يسعهم إلا أن يتصفحوا تصفحاً.

وكان لما كليايشي العالم الفلورنسي قيم الكتب (1633 - 1714) طريقة خاصة في المطالعة فإذا وقع له تأليف جديد ينظر في عنوانه ثم يرجع إلى الصفحة الأخيرة منه ويتصفح المقدمات والفهارس والتقدمات. وينقي نظره على كل التفاصيل الرئيسية وكان له من الوقوف على التأليف ما يتمكن معه من معرفة حقيقة المصنف في لحظة بل أنه يعرف المصادر التي أخذ منها المؤلف. ومن أرباب الاختبار في معرفة القراءة من يعرفون ماهية الكتاب من تقليب أوراقه ويدركون ما في صفحة منه من الفوائد بمجردلقاء النظر عليها ومنهم من يعرفون كيف يتصفحون الجرائد فلا يقع نظرهم إلا على ما يهتفهم منها ولا يضيعون ثانية من أوقاتهم في النظر بما لا يفيدهم.

ورأى بعض أهل العلم أن الذهن مهمل بلع من حدته يخون صاحبه في تذكر الفوائد التي قرأها فالأولى له أن يقيد ما كان الفهارس مما يعين كثيراً على الرجوع إلى مضامين الكتاب. ومن عشاق المطالعة من لا يكتفون بتقيد الفوائد في تذكراتهم بل هم يكتبون على كل صفحة قسّمهم كتابة تعينهم على الكتاب نفسه ولكن أكثر باعة الكتب يرون هذه الطريقة مما يعوق الكتب عن بيعها إلا أن المؤلف ومحبّي الاستفادة لا يهتفهم إلا أن ينتفعوا من كتبهم ولو بتزويقها وتشويبهها وما الكتاب إلا أداة لتنعم يجب استخدامها على النحو الذي ينتفع به نفعاً حقيقياً بل هو رفيق وصادق تحب معارضته ومناقشته أحياناً وأن لا يسلم له كل ما يورده.

يقول الفيلسوف سينيكا والأديب بلين لجون أن الإكثار من الكتب يشوّث الفكر وأن عادة القراءة كثيراً تفضّل قراءة أشياء كثيرة وقال لبعضهم: لا نهاية للاستكثار من الكتب ومعنوم أنه في هذا العصر الذي دعي بعصر الورق بل في هذا العصر الذي

اشتدت فيه تبايح مرض جديد أي الجنون في الطبع والنشر أن الكتب تنمو وتتضاعف من يوم إلى يوم. وما أجمل ما قالت أريستيب الفيلسوف اليوناني (390 ق. م) أحد تلاميذ سقراط وصاحب المذهب الأبيقوري المنسوب لمدينة سيرين: ليس من يأكلون كثيراً هم أسمن من غيرهم وأصح منهم أجساداً بل السنان هم أولئك الذين يهضمون. وهنا استشهد المؤلف بإحصاء غريب لبعض المشتغلين منذ اختراع الطباعة عنى القرن الماضي فقال أنه طبع في جميع أنحاء الأرض من سنة 1436 إلى سنة 1536، 42 ألف مجلد وفي سنة 1536 إلى سنة 1636، 575 ألفاً وفي سنة 1636 إلى سنة 1736 مليون و 225 ألفاً وفي سنة 1736 إلى سنة 1822 مليون و 839960 فيكون مجموع ما طبع زهاء ثلاثة ملايين ونصف مليون مجلد وإذا قدر معدل هذه المصنفات بثلاثة مجلدات وإن أقل ما يطبع من كل كتاب 300 نسخة فيكون قد خرج من المطابع كلها في نحو أربعة قرون 3313764000 وقدر أن تلتها حرق أو استعمل صرراً عند البدالين والباعه فلم يبق منها إلا ثلثها. وزيف بعضهم قوله بأن التوراة وحدها طبع منها زهاء 36 مليون نسخة وأن كتاب الاقتداء بالمسيح طبع منه وحده ستة ملايين وأنه إذا كان كتب على تاريخ فرنسا وحده ثمانون ألف مجلد فكم تكون كتب الأرض. وقدر أحد الأميركان عدد المجلدات في الولايات المتحدة كتباً يأتي 420 مليوناً في البيوت و 150 مليوناً عند العلماء والكتاب والمخترعين و 60 مليوناً عند الكتيبة والطابعين و 50 مليوناً في خزائن الكتب العامة و 12 مليوناً في مكتب المدارس والجامعات و 8 ملايين عند التلاميذ وأن في أوروبا الغربية مئياراً وثمانمائة مليون مجلد وفي أوروبا الشرقية أربعمائة وستين مليون مجلد

و240 مليوناً في سائر أقطار العالم. قال المؤلف: وبينما أهل الإحصاء يحصون ترى المطابع تصدر الكتب بالألوف فيقدر الآن ما يصدر كل سنة من الكتب في الشرق والغرب بخمسة وسبعين ألف كتاب جديد منها 25 ألفاً في ألمانيا و13 ألفاً في فرنسا و10 آلاف في الولايات المتحدة و7 آلاف في إنكلترا فلو فرضنا أن معدل ما يطبع منها ألف نسخة تكون كتب العالم قد زادت كل عام 75 مليون مجلد.

قال مؤلفنا في اختيار الكتب وهل تفضل القديمة أم الحديثة فرأى أن الشبان ومن قبل عندهم وأدهم يؤثرون الجديد على القديم وإن كان الجديد في الغالب غثاً بارداً والقديم سميماً مملوءاً بصحيح الفكر ومتين الإنشاء. وفي كتب القدماء كنوز قديمة لا مثيل لها في آثار الحديثين. قال: وعندي أن يختار من الكتب العلمية أحدثها التي أخذت بأطراف ارتقاء العلم عامة وآخر ما وصل إليه كماله أما في الأدب فيختار أحسن كتابه مهما قدم عهدهم فالآداب القديمة كما قيل كلها قدمت تتجدد.

ولا وراء في أن المطالعة تؤثر في عقولنا واضطراباتنا وتورثنا القلق والحزن فمن الفضول أن نزيد على ذلك ما تدخله علينا من السرور والنفع قال جول لتي في كتابه علم حب الكتب ومعرفة ما أكثر من يروون أمراضهم بفضل الكتب التي يطالعونها ولو عرف الناي ذلك حق معرفته ل زاد عدد المولعين بالكتب زيادة عظيمة. وتكلم المؤلف على الروايات وقال أن بعضهم يراها سبباً في الهيئة الاجتماعية وذكر كتي الفينسوف النقاد الألماني أنه من العيب أن يقول القائلون أن من الكتب ما يؤثر في إفساد الأخلاق وما الفساد إلا متوفر كل يوم في هذا الخيط وعندي أنه لا يجب التحرس كثيراً من ذكر ما لا يجدر أمام الأولاد من الأحاديث فإن الأولاد كالكلاب

لهم حاسة قوية في الشم ويكتشفون كل شيء ولا سيما ما كان من أمور الشر، وللعناء آراء مختلفة في هذا الشأن والأكثر على أن الروايات خيرها أقل من شرها وقشرها أضعف من لبها أما مطالعة الجرائد فهي لا تعد في باب مطالعة الكتب لأنها تكتب بسرعة دون أن ينظر فيها النظر البليغ وما الجريدة كما قال بابل إلا فاكهة الفكر. وقال سانت بوف: يجب بادئ بدء أن نتزود من الخبز والنعم الطيب قبل أن نضع الفاكهة والحناء. كتب تيوفيل غوتيه الكاتب الصحفي الفرنسي أن مطالعة الجرائد تحول دون نبوغ القرائح القوية الشكينة التي لا تريد غلا عشاقاً اقوياء في جدة الشباب فالجريدة تقتل الكتاب كما أن الكتاب قتل الهندسة وكما قتلت المدفعية الشجاعة وقوة الأعصاب. وقال جبرائيل هانوتو العالم: إن الجريدة هي المنافس الحقيقي للكتاب وما النجاح الذي أحرزته الجريدة غلا لرخص أثمانها وعندي أن الديمقراطية يجب أن يرخص فيها كل شيء لداواة أمراض النفوس وأن المستقبل لا يبقى إلا على نوعين من الكتب المخرّف والمبهرج الذي تطبع منه كنبات قليلة ليقتنيها أرباب القصود والغنى والكتب البسيطة التي تباع بأرخص ما يمكن من قيمة ليسوع للجنهور اقتناؤها من أيسر سبل وهذا الضرب من الكتب يحفظ للنعم رونقه وتبقى له حياته فالفلاح والعامل يجب أن يقرأ شيئاً وأن يخرج لها ما يقرأ أن وحاجتها ماسة إلى غير كتب التقاويم وهذا تبين أنه لا يخشى على الكتب من قلة عشاقها في المستقبل بل أن النفوس تظل عليها مقبلة ما بقي الدهر.

وقال مؤلفنا في الفصل الذي عقده للكلام على ممزقي المكتب وأعدائها أن أعظم ما عرف من المصائب التي أصابت المكاتب على ما ذكر بيروز المؤرخ الكندي من أهل

القرن الثالث قبل المسيح (عليه السلام) واسكندر بوليستور الكاتب العالم اليوناني من أهل القرن الأول قبل الميلاد أن منك بابل يختصر الذي أرخ به منذ سنة 747 ق. م قد أمر بإحراق جميع تواريخ أسلافه ليسدل بذلك حجاباً كثيفاً على الماضي ويكون عهده مبدأ يحرون على التاريخ به في جميع العالم. وأحرق الإمبراطور شي هونغ في الصيني سنة 213 ق. م جميع الكتب التي في مملكته ولم يستثن منها إلا المصنفات التي فيها تاريخ أسرته وعلم النجوم والطب وذلك بغضاً منه للثعالبين والمتأدين.

قال المؤلف: وأعظم ما أصاب الكتب من البليات في التمزيق والتحريق الفتن الدينية وذلك لأن الكتاب خير ناطق عن الإنسان. له من الصفات ما يحوله المثل في كل مكان ومن القوة والجرأة ما لا نظير له فاقضت الحال أن يبدأ بإسكاته قبل كل لسان أي أن يحرق لأنه الناطق الذي لا يسأم كما يسأم المخالفون والمناهضون. فقد أحرق الرومان كتب الإسرائيليين والمسيحيين والفلاسفة وأحرق الإسرائيليون كتب المسيحيين والوثنيين وأحرق المسيحيون كتب الوثنيين والإسرائيليين وأحرق المسيحيون معظم كتب أوريجين أحد زعماء الكنيسة في القرن الثالث للمسيح وكتب قدماء الملاحدة وأحرق الاردينال كسينيس (وزير إسبانيا والمفتش الديني 1436 — 1517) عندما استولى الإسبان على غرناطة خمسة آلاف مصحف وأحرق أهل المذهب البروتستانتي من البروتانتين في إنكلترا على أوائل عهد الإصلاح ما لا يحصى من الأديار والآثار القديمة وأحرق كرمفل مكتبة أوكسفورد وكانت من أعجب خزائن الكتب في أوروبا.

ثم عاد المؤلف إلى الكلام على مكتبة الإسكندرية ثانية وبرأ المسلمين من إحراقها فقال: تكتننا على مكتبة الإسكندرية التي شاع بأنها أحرقت بأمر الخليفة عمر عند استيلائه على الإسكندرية سنة 640 وقتلنا أن هذه المكتبة لم يكن لها وجود في ذلك العهد البتة وأن أحد قسسيها حرق قضاء وقدرًا سنة 47 قبل المسيح عند هجوم جند يوليوس قيصر وأن القسم الآخر حرق بعد هذا التاريخ بنحو أربعة قرون أي سنة 360 على يد الأسقف أو البطريك تيوفيل الذي كان يرمي إلى إبادة الوثنية في أبرشيته. ولم يعثر على كنيسة واحدة قالها مؤرخوا ذلك الزمن من عهد حريقها إلى قدوم عمرو بن العاص عامل الإمام عمر ما يستدل منه ويحمل على القرض بأنه أنشئت في الإسكندرية مكتبة ولا ينبغي أن يعجب من ذلك إذ من أسبابه أن الآداب والفلسفة الوثنية كانت في تلك الحقبة من الدهر قد حكم عليها بالتبديد في كل مكان حتى أن جوستينيانوس أمر بإغلاق مدارس آثنية.

ومعلوم أن ما ينسبونه لعمر من الجواب الذي أجاب به عمرو بن العاص وقد سأل عما يعمل بمكتبة الإسكندرية فقال له: انظر فإذا مكان ما فيها من الكتب يوافق ما في كتاب الله فلا فتد منه وإذا كانت مخالفة له فليس لنا بها حاجة فأحرقها. وعلى الحسنة فقد قال من أورد هذه القصة أن عمرو بن العاص وزع هذه المكتبة على حمامات الإسكندرية فاستعانت بها على إخماء حماماتها ستة أشهر مع أن الورق دح عنك الرق إذا صلب لإشعال النار فلا يصح لأن تدون به طويلاً.

ثم استشهد بقول جان جاك روسو في خطابه في العلوم والفنون: ولو كان غريغوريوس الكبير مكان عمر والإنجيل محل القرآن لكانت مكتبة الإسكندرية بدأت أيضاً على أن

البابا غريغوريوس المشار عليه (540 — 604) متهم بإحراق كتب القدماء ظناً كما اتهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكذا التاريخ لا يظلم أحداً.

وقال في كلامه على ما يكتب عليه الكتاب أن الرق هو من اختراع فرغامس (برغامه) في آسيا الصغرى والمطنون أنه عرف قبل خمسة عشر قرناً أما الورق فالأرجح أن الصينيين هم الذين اخترعوه وأن العرب نقلوه إلى أوروبا كما قال الدكتور غستاف ليون في كتابه حضارة العرب: إن الكتاب المخطوط العربي الذي عثر عليه القصيري (الطرابلسي) في مكتبة الإسكروال مكتوب على ورق من القطن ويود تاريخه إلى سنة 1009 هو أقدم مما عرف من المخطوطات المحفوظة في مكاتب أوروبا تدل على أن العرب كانوا أول من استعاضوا عن الرق بالورق وذلك أن الصينيين كانوا يصنعون الورق من الحرير منذ أزمان بعيدة فدخلت صناعته إلى سمرقند منذ أوائل الصدر الأول للهجرة حتى إذا جاءت العرب تلك المدينة فاتحة رأيت فيها معبلاً للورق ولكن هذا الاختراع الشين يصعب الانتفاع به في أوروبا لأن الحرير كان غير معروف فيها النهم إلا إذا استعاض عن الحرير بمادة أخرى. وقد ظهر من البحث في مخطوطات العرب القديمة أنهم وصلوا في الحلال من صنع الورق إلى درجة من الكمال لم يتجاوزوها ويظهر أنه من الثابت أيضاً أن صنع الورق من الخرق هو من اختراع العرب على ما في صنعه من التعب وما يحتاج إليه من المهارة وذلك لأن ورق الخرق عرف عند العرب قبل أن يعرفه المسيحيون بأزمان أهـ.

وبعد فهذا ما ساعد المقام عليه من الاقتباس من فوائد الكتاب وكنا نود لو عربنا أكثر ما عربنا مما يفيدنا في اجتماعنا وتاريخنا ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جنة وهذا القدر الذي أوردناه كاف في الدلالة على فضل مؤلفه.

والكتاب يطلب من مكتبة أرنست فلاماريون في باريس وثمنه كنه اثنان وعشرون فرنكاً ونصف مالا عدا أجرة البريد فحول أنظار من يعرفون الإفرنسية إلى اقتنائه.

رسالة رشيد الدين الوطواط

قيما جرى بينه وبين الإمام الزمخشري من المحاورات

عني بنشرها أحمد بك تينور

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب العلامة رشيد الدين محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري المشهور بالوطواط إلى الإمام سديد الدين بن نصر الحاقمي: طنبت مني زينك الله تعالى بأنوار المزايا وحمالك من كل حادثة منسية وكل طارفة مهمة ولا أخلاك من فخر تجتنيه وجميل ذكر تكتسيه وجزيل أجر تحتسيه وأثر جهل تجتنبه أن أهدي إليك وأمني عليك ما قاله جار الله سقى الله ثراه في كتاب الكشف في وجه انتصاب شهر رمضان وما فنته من الاعتراض على كلامه واستبعاد مدعاه عن مراده مما جرى بيني وبين أعز أصحابه أفضل القضاة يعقوب الجندي من السؤال والجواب وهذا أنا مطلق فيما أقوله مفصل السداد والصواب وقد ذهب من عندي إلى جوار الله وأخبره بما قلت فأ نصف وأنصت وأبدى خضوعاً لاستماع الصديق وإتباع الحق وقال له: ذكرني هذا الأمر بعض أيام فراغي حتى أصح من كتابي هذا الفصل وأغير هذا القول فإنه غلط شنيع وخطأ فظيع

إلا أنه مرض في تلك المدة ونزلت به المنية وما حصلت تلك الأمية وقد علم كل من شاهد أحوالي مع جاز الله أني كنت عند معظم القدر مفهم الأمر مقبول الكينات متبوع الإشارات لم يرمي كنيسة في أي علم إلا قيدها بينانه وضبطها في جنانه وأثبتها في دفاتره وأحكنها في خواطره وعددها غنية من غنائم عمره وقيمة من ثنائمه نكره وقد جرى بيني وبينه في حياته وأوقات راحته مما يتعلق بفنون الأدب وأقسام علوم العرب مسائل أكثر من أن يحصى عددها أو يستقصى أمددها رجع فيها إلى كلامي ونزل على قضيتي وأحكامي فالسعيد من إذا سمع الحق سكنت شقاشق لجاحده وسكنت صواعق حجاجه فنتها مسألة الطي التي هي جمع ظية فإنه كتب بخطه أنها من ذوات الياء وأصلها ظلية فقلت أنا أنها من ذوات الواو وأصلها ظبوة فلما امتدت المناظرة واشتدت المذاكرة بعثت إليه كتاب الصحاح يصدق قولني فهجن الكتاب وقال أنه محشو بالتحريفات مشحون بالتصحيفات فبعثت إليه سر الصداقة لابن جني فقال هو رجل وأنا رجل فبعثت إليه كتاب العين فوضع للحق عنقه وسلك مناهج الإنصاف وطرقه واسترد خطه ومزقه تمزيقاً وخرقه تحريقاً بحرأى ومسح من صدر الأئمة ضياء الدين أدام الله إجلاله وزاد إقباله.

ومنها مسألة كلا الرجلين إذ كتب في حالة الجر والإضافة لتظهر بالألف فقلت الصواب أن يكتب بالياء وأيدت قولني بنصر ابن دستورية في كتابه الموسوم بكتاب الكتاب وجرى هذا محضرة الإمام الأجل زين المشايخ البقالي أدام الله سعادته وحرس سيادته ومنها مسألة نسر وفرقد في تثبيتهما بغير ألف ولام في شعري فأنكره وقال لا يجوز هذا في الشعر ولا في غيره فأريته ذلك في شعر المعري وأبي تمام فقال أخطأ حتى

أراه سلبان بيته وصدى صوته الإمام فخر الإسلام المؤذي ذلك في شعر الأعشى فعند ذلك لانت خشونته وسهلت حزونه ومنها مسألة الضرب بين الخدوف والضرب الصحيح في شعر واحد من الطويل وقع له في ديوانه في قوله:

جوار فريد العصر خير جوار ... ودار فريد الدهر أكرم دار

ثم قال:

فإنه من جوار حمدنا جواره ... والله من فرد والله من دار

فضرب الأول محذوف وضرب الثاني صحيح ولا يجوز اجتماعهما في هذا البحر باتفاق العروضيين فلما نبهته على لسان تلميذه الحسن الطالقاني طلب ديوانه وغيره هكذا والله من نار وموقد نار فاستقام وزنه ومنها مسألة الحادي عشرة والثانية عشرة ومنها مسألة التحية ومنها مسألة تجريد الإمالة ومنها مسألة إدخال الوليد بن الوليد في جملة الكفرة من أولاد الوليد ابن المغيرة وسأني ذكره في رسالته إلى الحاقمي. ولو نقلت ما في كتابي من المكنونات ونشرت ما ادخرته في خزائن المخزونات طال الكلام وكنت الأقلام وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتیان هذه الحطة أن هذا الإمام كان صبوراً على مرارة الحق وحرارة الصدق مع أن رب هذه البضائع وصاحب هذه الوقائع. فصل قوله قرأ أبي شهر رمضان بالنصب على تقدير صوموا أو على الإبدال من أياماً معدودات أو على أنه مفعول أن تصوموا وأوله قولاه الأولان صحيحان ولا مطعن فيهما وأما الثالث فنوضع بحث إذا لا يجوز مثله البتة لأنه لو كان كما زعم كان شهر رمضان تسمية لأن تصوموا ولكن مجموعها في حكم مبتدأ واحد وصار تقديره صوم رمضان خير لكم وليس بجائز أن تجعل المبتدأ نصفين وتفصل بينهما وتدخل الخبر

في وسطها أما يكون خير المبتدأ متأخراً عن المبتدأ وهو الأصل أو مقدماً عليه بشرط التعريف وغيره من الشروط وهذا هو القرع وأما أن يكون واقعاً بين شرط من المبتدأ فليس من كلام العرب كقول القائل لمن ينفعه اللحم أن تأكل اللحم خير لك صحيح وقوله خير لك أن تأكل اللحم صحيح فأما قوله أن تأكل خير لك اللحم فغير صحيح وهذا قولي استحسنته جار الله والله أعلم بكتابه وأعرف بأسرار خطابه. وقد كتبت هذه الرسالة فعليك بحفظها عن هؤلاء الذين لا يفهمون الدقائق ولا يعلمون الحقائق فإني حررتها لأمثالك من ذوي الفهم والهداية وأشكالك من أولى العلم والدراية لا هؤلاء الذين عميت أبصارهم وبصائرهم وصدت أفكارهم وخواطرهم فإن رياض العلم لا تفتق للنجانين وحياض الرحمة لا تدفق للشياطين والسلام.

وقف في الروض

ناح الحمام وغرد الشحرور ... هذا به شجن وذا مسرور
في روضة يشجي المشوق ترقق ... لنساء في جنباتها وخير
ماء قد انعكس الضياء بوجهه ... وصفا فلاح كأنه ينور
قد كاد يمكن عند ظني أنه ... بالأمس يوشع منه لي موشور
وتسلسلت في الروض منه جداول ... بين الزهور كأنهن سطور
حيث الغصون مع النسم موائل ... فكأنهن معاطف وخصور
ماذا أقول بروضة عن وصفها ... يعيا البيان ويعجز التعبير
عني الربيع بوشيتها فتروعت ... لنعين أنوارها وزهور
مثلت بها الأغصان وهي منابر ... وتلت بها الخطباء وهي طيور

متعطر فيها النسيم كأنما ... جيب النسيم على الشدا مرور
 لتخرجس المنطون ترونوا أعين ... فيها وتبسم للأقاح تغور
 اتخذت خزامها البنفسج خدتها ... وغدا يشير لوردها المنثور
 وكأن محسر الشقيق وحوله ... في الروض زهي الياسمين يمور
 شمع توقد في زجاج أحمر ... فغدا حواليد الفراش يدور
 وتروق من بعد بها فوارة ... في الجو يدفق ماؤها وينور
 يحكي عنود الماء فيها آخذا ... صعدا عنود الصبح حين ينير
 ناديت لما أن رأيت صفاءه ... والنور فيه مغفل مكسور
 هل ذاك ذوب الماس يجمد صاعداً ... أم قد تجسم في الهواء النور
 تتناثر القطرات في أطرافها ... فكأنما هي لؤلؤ منشور
 ينحل فيها النور حتى قد ترى ... قوس السحاب لها بها تصوير
 كم قد ليست بها الضحى من روضة ... فيها علتني نصرة وسرور
 فأجلت في الأزهار لحظ تعجبي ... ولفكري بصفاقن مرور
 فنظرتن تحيراً ونظرتني ... حتى كلانا ناظر منظور
 فكان طرف الزهر ثمة ساحر ... لما رنا وكأنني مسحور
 إن الزهور تكنهن براعم ... مثل العلوم تجنهن صدور
 وتضوع التفحات منها مثله ... تبينها للناس والتقير
 وبتلك قلب الجهل مصدوع كما ... ثوب المنيوم بهذه مطرور
 والزهر يبيت السحاب بمائه ... كالعلم يبيت غرسة التفكير

إن كان هذا في الحقائق بهجة ... يزهر فذلك في النهر تنوير
أو كان هذا لا يدوم فإن ذا ... ليدوم ما دامت تكرر عصور

بغداد

معروف الرصافي

مطبوعات ومخطوطات

سياحة في تركستان أو بلاد كشغر

نشر الأستاذ هارتمان من علماء المشرقيات الألمان سياحة له بالألمانية إلى بلاد كشغر أو تركستان وصف فيها جغرافية تلك البلاد وحكوماتها السالفة وطرقها وعلائقها مع الأمم وتاريخها القديم والحديث وإدارتها الصينية وما كان له من الصلات مع موظفيها وعلاقة الكشغريين بالأجانب ولغتهم وآدابهم ودينهم وتعليمهم ودروسهم وارتقاءهم العقلي. والسارتين والمشرين الأوروبيين من الإنكليز والسويديين والألمان وصادرات تلك البلاد ووارداتها وتجارتها وما يرجى لها من التقدم وقد جعل كتابه هذا لخدمة أمته في سياستها وتجارها فوجد أنظار حكومته ومواطنيه لبلاد خاضعة بالاسم للصين ولكنها تخالفها من حيث أصول سكانها ولغتها ودينها. وبلاد تركستان الصينية أو كشغر أتت عليها زمن كانت مستقلة منذ بضعة قرون على عهد سلاطين ويغور أما اليوم فإن الإسلام قتل فيها على رأيه حالتها العقلية والصناعية فليس فيها ما تستطيع أن تنهض به وحدها وتستعيد سالف استقلالها. فأصبح من اللازم إنشاء مملكة حسنة الإدارة في تلك البلاد بين آسيا الشرقية وآسيا الغربية أي في طريق الحرير وما من دولة أوروبية تحدثها نفسها في الاستيلاء على تلك البلاد لأن روسيا ضعيفة وإنكترا لها من المشاغل

بغيرها ما يصدها عن اكتساحها والصين ليس في وسعها أن ترمي بقسم من شعبها ثم وأن تجعل لها جيشاً ضخماً من أبنائها يكون على قدم الدفء عنها وهي عارفة بأن مركزها مقلقل. ولذلك احتاجت بلاد كشمير إلى الغريب لينهضها من كبوتها.

ولو كان فيها بعض الأهلين من المسيحيين لكان المرسلون المسيحيون ينفعون البلاد كما هو الحال في سورية ولكن الشعب هناك مسلم كله فليس في الإمكان أن يدعى إلى النصرانية لما أن ذلك يهيج تعصبه ولا يأتي بنتيجة. ومن خرج من الإسلام فجزاؤه القتل عند المسلمين. فليس إذاً غير المرسلين البروسيين يعرفون من أين تؤكل الكتف ويتخذون طريقة توصل إلى المقصود فلا يدعون إلى الدين بل يتفرون فقط على تقوية التجارة والصناعات.

ومستجد ألمانيا في تلك البلاد مصارف مهينة لتجارها تنفع بها كل الانتفاع ولا سيما إذا كانت كل ذاهبة إليها على شرط أن تؤسس فيها مملكة مستقلة تحت حماية الصين ولا يكون الإسلام دين حكومتها الرسمي بل تكون على الحياد تجري فيها الحرية المطلقة على أصولها لجميع النحل والممل وتتعاهد الدول بينها على ضمانه ذلك كله. والترك والتاتار هناك قد أفسدتهم الحشيش والقمار فلا يستطيعون إدارة البلاد بيد القرغيز هم أكثر عدداً وأكثر متانة وقوة وليس عندهم أثر للتعصب.

أ. ج

الترغيب والترهيب

طبع هذا الكتاب الجيد التأليف في الهند وهو من تأليف الإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المندري المتوفى سنة 656 وأعاد طبعه الآن أحمد ناجي أفندي

الجنائي ومحمد أمين أفندي الخانجي الكتي وأخوه فجاء في مجلدين من القطع الكبير تبلغ صفحاتهما معاً زهاء 660 صفحة وقد قسمه مؤلفه إلى أبواب كثيرة تدور على ما ورد في الترغيب والترهيب صريحاً بدون ذكر الأسانيد المطولة وميز بين الأحاديث الصحيحة والحسنة أو ما قاربها وبين ما كان إسناده ضعيفاً وإن كان من تقدم من العلماء أساغوا التساهل في أنواع الترغيب والترهيب حتى أن كثيراً ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله وقد استوعب فيه جميع ما كان متداولاً في كتب الحديث لعهدده. وهو يطلب من طابعيه بالخروجي بمصر.

لا مساسية

الأستاذ أغناس غولدمهير اخري من أفراد علماء المشرقيات في أوروبا اليوم عرف بأبحاث كثيرة كتب بعضها بالألمانية وبعضها متعلق بالمثل والنحل وأمانتها الآن من أبحاثه الأخيرة رسالة في مسألة السامري وعجل الذهب وروايات الكتب السماوية والتاريخية فيها وقد نشرها في مجلة الإفريقية باللغة الإفرنسية أولاً ثم أفردها على حدة فجاءت شاهدة بسعة اطلاعه.

دروس القراءة

أهدينا القسم الأول والقسم الثاني من هذه الدروس للشيخ محي الدين الحياط محرز جريدتي بيروت والإقبال وفي القسم الأول خمسة فصول الفصل المجاثي والأخلاقي والفكاهي والحكسي والديني وفي القسم الثاني الفصل الأخلاقي والحيواني والفكاهي والحكسي والديني وكنها مشكولة بالشكل الكامل مطبوعة على نفقة محمد شاكر

أفندي ياسين طبعاً متقناً تسهيل على الصغار القراءة من أيسر السبل فعساها تلاقي في المدارس إقبالاً.

كشف الستار

صنف السيد أحمد بك الحسيني الفقيه الأصولي المشهور نبذة من حكم القايض على المستحجر بالأحجار وأنه لا تبطل صلاة حامل الصبي إلا إن تحقق نجاسة ثوبه وأتى على ذلك بنصوص المتقدمين والمتأخرين عراقيين وخراسانيين وما رجحده في هذا الباب فجاءت رسالة مستوفاة في بابها ترفع الحرج عن المصلين وتشهد لمؤلفها بالفضل المبين وهي في نحو 180 صفحة مطبوعة طبعاً متقناً بمطبعة كردستان العلنية بالقاهرة على ورق جيد.

الإنشاء العصري

طبع محمد عمر أفندلجاً من أدباء بيروت كتابه الإنشاء العصري طبعة ثانية مضيئاً إليها زيادات لم تكن في الأصل فتوسع في القسم التجاري منه فنثّل أكثر قواعد كتاب التجارة في معاملاتهم وأتى على جدول الأوزان والقياسات فكانت الزيادة في صفحات الكتاب 171 فأصبح أربعين صفحة متوسطة الحجم مطبوعاً في المطبعة الأهلية طبعاً متقناً وفي الكتاب رسائل تجارية وأخوانية ورسمية وغيرها وأغودجات من المعاملات وأكثرها في اصطلاح سوربة بالطبع وهذا الكتاب في باب مستوفى الشروط فنثني على همة مؤلفه وهو يطلب من المكاتب الشهيرة بمصر والشام وثمنه هنا سبعة قروش.

المقصود والمسدود

هذا الكتاب تأليف أبي العباس أحمد بن محمد بن الوليد بن ولاد النحوي المتوفى سنة 332 طبع للمرة الأولى في أوروبا وأعاد طبعه الآن محل محمد أمين أفندي الخانجي وشركائه. ذكر مؤلفه فيه من المقصور والمسدود ما كان منه مقيساً وغير مقيس وألفه على حروف المعجم مثال ذلك الشر فإنها تكتب على وجهين فالشرى من الندى مقصور يكتب بالياء لأنهم يقولون في تثنيته ثريان ويقال كأنه مطر التقى منه الثريان يريدون الظاهر والشرى الباطن وثرى الكتيب يثرى فهو ثريان والشرى في كثرة المال محدود. والكتاب نافع للشتغين باللغة لأنه يوفر عليهم عناء الرجوع إلى المعجم للتمييز بين المقصور والمسدود من الأسماء إذا اشتبهت عليهم.

فن الرسم

نظم الشيخ حسين محمد الجبل أرجوزة من 160 بيتاً ضمنها قواعد فن الرسم والإملاء ليسهل حفظها على المبتدئين بالعربية قال إنه أقرأها التلاميذ حفظاً وفهماً فلم يقعوا بعد ذلك فيما كانوا يتخطون فيه من الخطأ فنشكر له همته.

سير العلم والاجتماع

الجمعية الخيرية الإسلامية

أصدرت هذه الجمعية تقريرها عن سنة 1908 جاء فيه أن أملاكها بلغت 518 فداناً و18 قيراطاً و4 أسهم ودفعت كل ما كان باقياً عليها من ثمن أطياها وبقي معها 7555 ج. م وبلغ ريع أطياها 3539 ج. م وإيرادها من أوقافها 509 ج. م وخصص لها في السنة ألف جنيه من الأوقاف الخيرية إعانة وعدد مدارسها في القطر المصري ثمانين فيها 1338 تلميذاً منهم 648 يتعلمون بالجان وصرفت على مدارسها

6744 ج. م وستنشي مدرسة لتعليم الفقيرات الخدمة المنزلية وتربيهن التربية الأدبية للخدمة في بيوت الأغنياء ووزعت في السنة الماضية 945 ج. م إعانات وعدد أعضائها الآن 546 عضواً والمساعدين 122 وبلغ إيرادها من احتفالها السنوي 2448 وما تبرع به الخسئون 5970.

وقف خيرى

وقف أحمد مظلوم باشا ناظر المالية المصرية وقرينته 1750 فداناً من أجود أطياهما وقصرهما برمل الإسكندرية على ذوي قرياهما ومن بعدهم إلى جمعية العروة الوثقى لتصرف ريعه في شؤون التربية وخصصاً للجمعية حصة يقدر ريعها بألف جنيه سنوياً تتناولها وبعدهما.

مدرسة الفنون الجميلة

فتحت مدرسة للفنون الجميلة التي أنشأها في القاهرة من ماله الأمير يوسف كمال لتعليم التصوير والنقش وهي تسع ثلثمائة طالب وطالبة وقد دخل هذا القدر منهم لتعلم هذه الفنون التي هي بنت الحضارة والارتقاء.

ورق من تراب النفط

يصنعون الآن في ضواحي كاباتك من أعمال ولاية مشيغان في الولايات المتحدة نوعاً من الورق بحيث لا تمضي ساعتان على وضع المادة المؤلف من هذا الورق حتى يخرج ورقاً لنصر أرقى من الورق المصنوع من الخشب وآل منه كنفقة وهو لا ينفد ولا يرشح ويصنع لوضع الفراء والأصواف فيقيها العث وغيره من الحشرات وقد أخذوا

يصنعون منه علباً ومقويات يتطنبها باعة القرو والشياب ولكن لونه أزرق وهم يحاولون أن يجعلوا منه نوعاً أبيض.

معدن جديد

اكتشف أحد الفرنسيين معدناً جديداً اسمه البلانشييت وهو مركب من حامض الصوان ومادة أخرى نحاسية أزرق اللون وهو موجود في بلاد الكونغو. اسماقة الكشكة

يبلغ عدد الكرادلة الكاثوليك الآن 561 كردينالاً منهم 36 إيطالياً هذا مع أن إيطاليا ليس فيها سوى 30 مليوناً ممن يتتبعون الكشكة من مجموع 230 مليوناً من الكاثوليك في العالم وللكشكة 605 أساقفة من الأوروبيين منهم 258 إيطالياً على حين ليس من كاثوليك ألمانيا وفيها 22 مليوناً منهم سوى 25 أسقفاً.

ثروة روسيا

أحصى أحد المدققين ما دخل على روسيا من المال وما خرج منها في خلال السنة الماضية فكان مجموع ما دخل عليها من أموال القروض وغيرها من الواردات غير المقررة عشرة مليارات ومائتين وأربعة ملايين روبل صرفت عشرة مليارات وأربعمئة وخمسة عشر مليوناً. وتبلغ ديونها تسعة مليارات وثمانمئة مليون روبل أي 26 مليار فرنك أنفقتها في ثلاثة فروع منها أربعة مليارات وستمئة مليون في سبل الحروب الخارجية وأصاب الحرب اليابانية منها مليارين ومنها ثلاثة مليارات على إنشاء الخطوط الحديدية وابتاع بعض ما في بلادها منها وأسلفت المصارف العقارية للأشراف والفلاحين 1225 مليون روبل كما أعطت مليارين ثمن أراضي في سيبيريا

إلى أصحابها المستعبدين وفي بلاد روسيا 44 ألف كيلومتر من السكك الحديدية ريعها السنوي 65 مليون روبل وتعطي 2. 12 في المئة من أصل المبلغ المستقرض لإنشائها والباقي تدفعه الخزينة وتزيد واردات سككها حيناً عن آخر بزيادة سكانها وكثرة تنقلهم وجودة المستغلات. وتبلغ مساحة أراضيها الزراعية في أوروبا 430 مليون هكتار منها 165 مليون للحكومة والمدن والإقطاعات وغيرها والأراضي في روسيا كثيرة والناس لا يشكون من قنيتها بل من قلة توفر بعض الفلاحين على حسن الانتفاع بها. والفلاح الروسي أغنى فلاحى العالم بكثرة ما يملك من الأراضي وأقلهم ثروة.

تربية الجنسين

مضت الشهر الأخيرة والتراع على أشده في الولايات المتحدة بين المعلمين والمعلمات لتبحث عما إذا كان الإنصاف يقضي بأن ينال المعلمات من المشاهرات بقدر ما يقبض المعلمون. ومعنوم أن الولايات المتحدة تصرف القسم الأعظم من واردات بندياتها على التعليم. فقد كان سكان مدينة نيويورك سنة 1900، 3437202 وميزانياتها 118740596 ريالاً تنفق منها على المدارس 19731629 والباقي على الدين العام والشرطة ورجال المطافئ والمستشفيات والملاجئ الخيرية وغيرها هذا ما عدا الخمسة ملايين ونصف ريال التي أنفقتها تلك السنة على إنشاء مدارس جديدة وكانت ميزانية فيلادلفيا في تلك السنة 34605948 وعدد سكانها 1293697 أنفقت منها 4186000 على المدارس وكان سكان بوسطن في تلك السنة 580893 وميزانياتها عشرين مليون ريال خصصت منها ثلاثة ملايين للمدارس وعلى هذا فتتفق نيويورك التي تار فيها التراع بين المعلمين والمعلمات أكثر من جميع

الولايات على المعارف فهي تصرف واحداً من ستة من وراثتها ويوسطون واحداً من سبعة وفيالافيا واحداً من ثمانية.

ثم أن عدد المعلنات في أميركا أكثر من عدد المعلنين وما زال عددهم آخذاً بالازدياد أكثر فقد كان عدد المعلنين في الولايات المتحدة سنة 1870، 77529 معنياً وعدد المعلنات 122986 فأصبح المعلنون في سنة 1904، 113744 والمعلنات 341498 وعدد المعلنين إن لم يكن في نقص فهو لا ينمو على العكس من عدد المعلنات فقد كان عددهم منذ ثلاث سنين يربي على عدد المعلنين ثلاثة أضعاف.

قامت إنثا عشر ألف معلنه في نيويورك يطالبن بحقوقهن قاتلات: إذا تساوى العمل وجب أن تساوى أجرته فليس من العدل أن يعمل النساء في هذا المعنى كالرجال ولا ينن من الأجور إلا ثلث ما ينال الرجل وإذا قدر لمن أن يلغن إحداهن الدرجة الأولى تقبض 2500 دولار على حين يقبض الرجل 3000 فاضطرت حكومة نيويورك إلى أن يجيبهن إلى مطالبهن وزادت ثلاثة ملايين دولار على ميزانية معارفها وكانت عشرين مليون دولار في نيويورك وحده كما تقدر وقد تنكأ مجلس الأمة أولاً على الموافقة على هذه الزيادة للمعلنات ورأى رفضه من الحكمة مخافة أن يتدرج ذلك إلى الأعمال الأخرى التي تشارك فيها المرأة الرجل في تلك الديار ويقوم النساء يطالبن بزيادة فيختل نظام البلاد الاقتصادي غلا أنه لم يسعد بعد الإقرار على زيادة ميزانية المعارف إلا أن يأخذ الرجال والنساء بحظ منها على السواء.

كتب مفوض الولايات المتحدة في الإشراف على العمل والعمال سنة 1896 تقريراً على 1069 مركزاً في ثلاثين ولاية من ولايات أميركا جاء فيه أن النساء يربحن في

المعاسل أقل من 23 في المئة من الرجال مع أنهم يعينون عملاً واحداً وأن النساء يقبضن 24 في المئة أقل من الرجال في المطاعم و 28 في المئة في معامل الأحذية و 46 في صنع العنب و 61 من صنع الفرش والأثاث وفي معامل السكاكين 116 في المئة والورق 117 ومثلها في المخازن والمكاتب وفي مكاتب الضمان 29 في المئة وفي مكاتب الوكالات عن أدوات الخياطة 66 في المئة. ولئن كانت الولايات المتحدة تزيد ميزانيتها في المعارف سنة عن سنة فإن هذه الزيادة تصرف في الغالب في بناء مدارس فخيصة وابتاع أدوات فاخرة فقد بلغ ما صرفته الحكومة هناك على المصارف سنة 18903. 7105999190 ريالاً ولم يأخذ المدرسون والمدرسات سوى نحو 36 مليون دولار. وتبين بالإحصاء أن إقبال الرجال على التعليم قل بعد حرب أميركا مع إسبانيا ولم يعد يتحصن للتعليم إلا من شفقوا به ورغبت النفوس عن اتخاذ حرفة للارتفاق بها وذلك لأن المتعلم من الطراز الأول كالتك الأساتذة قد يربح أضعاف ما يتناول من التدريس إذا انصرف للأعمال الحرة. وقلق رجال العنم في أميركا من دوام إقبال النساء على التعليم وانصراف وجوه الرجال عنه وقالوا بأنه سيحيي زمن ينحصر التعليم في أميركا بأيدي النساء وقال رؤساء الكليات ومديرو المدارس ونظارها أن تدريس الرجال أرقى من تعليم النساء. وأثبتوا أن من الضروريات في التعليم البيان والنظام وأن صبر المرأة ووجدانها وإدراكها ربما كانت أرقى من طبيعة الطفل المتعلم ولكن كل هذه الصفات لا تجبر النقص الخسوس في أسلوبها في التعليم وذلك لأن ضعفها الخسوس عن التفصيل يزيد هذا النقص استحكاماً ويحيي ضعفاً على إباله فيما يتجلى في دروسها من الإهمام.

تقوم المدرسات في المدارس الابتدائية بأعمالهن خير قيام لما أن الموضوع واضح في ذاته وما هو إلا حروف وأرقام ولكن إذا عهد إليهن تدريس النحو يوردن القاعدة وشواذها ويضعفن عن البيان وتحولن أساليب التفهيم وبيان الروابط بين الموضوعات وقد ظهر أن الفتيات يفضلن الأخذ عن المعلمين إذا أردن تعليناً سليماً بسيطاً والفتيان لا يؤثرون التخرج بالمعلمات وغدا كانت الكتب المدرسية واضحة الأسلوب لا يقتضي لها إلا تقرأها المعينة فتقوم قراءتها مقام الشرح وال عبارات المنطقية. ولكن كتب التدريس في أميركا إذا قبل بينها وبين أمثالها في ألمانيا وفرنسا يتبين أنها أحط بكثير.

ولا يجب أن يؤخذ من هذا بأن الواجب إيراد أبواب التعليم في وجوه النساء فإن المرأة يحق لها أن تعيش كالرجل. ولكن ظهر أن النساء في البلاد الإنكليزية السكسونية حيث صحت عزائتهن على منافسة الرجل لا يصلن إلى المناصب السامية إلا نادراً وهذا مما يشبه ما هن عليه من الانحطاط العقلي. وأنا ترى المرأة تنجح أحياناً أكثر من الرجل في الأعمال التي يكون الدافع عليها الغرام والهوى أكثر من أعمال الفكر والقوى كأن يكون منهن ممثلات ومغنيات يفقن الممثلين والمغنين ومنذ استولين على هذين الفرعين في أميركا وإنكثرا أنزلن درجة فن الأدب فيهما وسبب نجاحهن بل تفردهن بهذين الفرعين ناشئ في الأغلب من درجة مالية وذلك لرغباتهن بالقليل من المال على ما هو العكس في الرجال. ومستحق ألمانيا وإنكثرا وأميركا في هذا الشأن فيكون نساؤهما قابضات على أزمة التمثيل والغناء فيها بعد قليل من الزمن. والعلوم التي تبرز فيها النساء حقيقة على صورة مدهشة هي الرياضيات لأن

موضوعها يعصنهن من الغلط وتدقيقهن فيها ناشئ من نفس الموضوع لا من قوة عقل المرأة.

وحري بالرجال في الشؤون العقلية على الأقل أن لا يحرموا من حقوقهن ولا دليل ينهض على هذه القضية أكثر من أن الأميركي فإنه لم يأت بشيء خارق للعادة حتى الآن في عالم العلم وذلك لأن المرأة تعدده لتسير في هذا السبيل قبل دخوله الكليات. وليس النساء مسئولات عن الميل في إهمال التهذيب المنظم للذاكرة ولكنهن لم يخلقن على ما ترى ليعلمن الولد طريقة صالحة في تصحيح الأفكار أما من حيث الأخلاق فإن تعليم النساء للرجال ليس طالع خير فبئس ذهاب بضع مئات من الأساتذة والمعلمين الإنكليز إلى أميركا على نفقة المستر موسلي أحد أغنياء الإنكليز للبحث عن طريقة التربية في الولايات المتحدة ومما لاحظوه ملاحظة خاصة في تقريرهم تأثير التربية التي تربيها النساء الرجال وأثرها المدهش في اختراع الأميركي ونعني بهذا التأثير قللة أخلاق الرجولية فيه وما كانت ملاحظة تلك النجدة هي الأولى من نوعها بل أن غير الأميركيين كثيراً ما كانوا يدهشون مما يبدو لأنظارهم من هذا القبيل.

رجال الأميركان يعنون من وراء الغاية في المحافظة على الست وثلاثين ألف قاعدة في مصطلحات المدنية الاجتماعية فيبالغون في التألق بلباسهم مبالغة مفرطة ويدققون كل التدقيق في القيام بأقل ما تقتضيه سنة الأزياء ويرققون الفاظهم ترفيقاً يقرها أبداً من التكلف ولا ينسب ذلك غلا لتسليم مقاليد التربية للنساء. ولو استطاع المرء أن يكون تاماً في هذا المعنى لما كان ذلك بأمن بل قد يحدث كثيراً أن المبالغة في التزبي والمنافسة في الحصول على صفات الظرف الذي لم تجعده الطبيعة من خصائص الرجل

تعبث بمروءته ولكن إذا كانت أخلاقه من المثانة بحيث لا تفسد رجوليتها لا تثبت الرجولية أن تزيد فيه مستقلة عن كل تأثير من تأثيرات الحضارة ولا يكون تكلف الظرف واللفظ إلا ظواهر خداعة ويبعد عن درك علاقة التمدن والتجمل في الحياة الاجتماعية بحياة الأعمال. وقد أدرك بعض الأميركان نتيجة هذه التربية النسائية وسجنوا شيئاً من سيئاتها متى جاوزت حد القراءة والكتابة والحساب.

ومن سوء أثر هذه التربية في الأميركان أن الرجل يرى نفسه أحط من المرأة مهما تصنع لها ويرى من كرمها أن تعطف عليه وهكذا حتى أصبح المجتمع الأميركي أنثوياً فيه من ضروب التكلف والغرابة أشكال وألوان.

انتهى ملخصاً من مقالة لأحد علماء فرنسا.